(٤١) من تراث الكوثري

صفعات البرهان على صفحات العدوان

تأليف العلامة الشيخ

محمد زاهد الكوثري

تصحيح ومراجعة

محمد عبد الرحمن الشاغول

مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمي

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف

☎: ٥١٢٠٨٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد: فهذا كتاب «**صفعات البرهان على صفحات العدوان**»؛ الذي يعدّ مقالاً ردّ فيه الإمام الكوثري — رحمه الله — على كلمات متهافتة كتبها قلم محب الدين الخطيب، والإمام الكوثري يفنّد فيها كلامه، وينقده نقداً بناءً، ويستخرج زيفه فيظهره للقارئ البصير الذي لا تخيل عليه الدعاوى الباطلة، ويتعرض فى أثناء كلامه للكلام على المجسمة والمشبهة، ومن كان من أهل الحديث لا علم له بتأويلها وفقهها؛ فوقع بسبب ذلك فى هذه التُّرَّهات، واتبعه من اتبعه من بعده على هذا الغيّ والضلال، وهو كلام وجب على عالمٍ كالإمام الكوثري حتى يَحْصُل البيان، ولا يُكتم العلم فيُضَلَّ المسلمون فى عقائدهم، وقد عني بنشر هذا الكتاب تلميذ المصنف الشيخ حسام الدين القدسي، قبل ذلك فى مطبعة الترقي سنة

(١٣٤٨) هـ، وفي أثناء الكتاب نجد تعليقات الظاهر كونها للإمام الكوثري، وأخرى للشيخ حسام القدسي، وتعليقات أخرى على مقال ابن الخطيب الواضح أنها له.

ولأن المكتبة الأزهرية للتراث قد اهتمت بنشر رسائل وتراث الإمام الكوثري؛ لذا فهي تستكمل بذلك هذا الأمر، وتنشر هذا الكتاب، وقد انتدبت لتصحيحه، وتشرفت بالقيام على صحة مبانيه ومعانيه، فالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه، وسلم.

كتبه/

محمد عبد الرحمن الشاغول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فقد أتى إليّ بعض أصحابنا الفضلاء بجزءٍ من مجلة الزهـــراء فيـــه مقال ملؤه عدوان وإقذاع وبهتان، بقلم ضاع صـــوابه وتشـــنَّجَت أعصـــابه يستصرخ ويصيح ويتكلم بما لا يفهم! فرحمت المسكين وما كنت أعهد منه هذا الداء الدفين، فإذا هو صريع وكزة البرهان، تتناوبه أدوار الهذيان، وأخذته العزة بالإثم فيما لا شأن له به ولا قسم، أفهل يجوز أن يُتْرَك مثله على جهله ولا يُعَلَّم وأن تخلى أظفاره على طولها ولا تُقَلَّم؟

كلا بل مَنْ يطغيه الصَّفح إثْرَ الصَّفْح يجب أن يقرع، ومن يناهض الحجة بالإقذاع يلزم أن يُصْفَع، فأقوم بواجبي في هذه المرَّة، ولنا كرة بعد كـــرة، والله ولي الهداية.

أقول أولاً لهذا الكاتب الأديب: إياك أعني.....

ما كنت أظن بك أن تضع نفسك حيث وُضِعْتَ بمقالك هذا! فيا لها من بساطة في سلاطة قَرَّظت «الكتاب» في الجزء الغابر، ثم نزلت عليه هذه النزلة في العدد الحاضر، لأنك كنت في الأولى سائراً في المنام، وفي الثانية مُسَيَّراً بإلهـــام، وأنت في الحالتين الكاتب الأديب، المحب ابن أبي الفتح الخطيب، لا تبدَّلْتَ ولا

تغيرت، وحيث لا يكون معنى لما يلفظ بمنتأى عن القصد والإرادة لا توصم أنت بالتدافع بين مقالة ومقالة، ولا تعد مخلطاً متناقضاً.

بَيْدَ أنه لعدوانك الأخير لهجة خاصة لعلها مما ورثته من مهنتك أو تَبَطَّنْتَه من نِحْلَتِكَ، وأياً كانَ يلزم أن تعلم جيداً أنت ومَنْ عَوَّدك التَّجَرِّي أن مثل هذا التهييج والتشنج لا يكسر الحق ولا ينصر الباطل! وإنما يرتد صدى هذه الكلمات السفيهة متشبعة بمعانيها إلى مصدرها تَوّاً كما هي لم تُطْمَس إذا لم تجد محلاً ولن تجد!

وليس لمثل هذه النَّعْرَة موضع في معجمنا معجم الأبحاث العلمية! بل إنما فيه قرع الحجة بالحجة، والابتعاد عن العواطف كما هو شأن روّاد الحقيقة، وأما إذا بقينا أمام مشاغب بباطل معاند للحق متطاول فهناك فقط تأتي نوبة الخطاب بلهجة يفهمها المعاند الشَّغَّاب! فها أنذا أناقشك الحساب على عدوانك فعليك الجواب!

أما قولك في عنوان مقالك: (عدوان على علماء الإسلام) فأيُّ عُدْوان يكون أبشع من هذا العنوان «يجري اعتداء عظيم على جميع علماء المسلمين من حيث أنهم مسلمون على مرأى من أهل العلم في مشارق الأرض ومغاربها من عام وقبل عام»؛ ولا ينتبه إليه إلا هذا البذي المُسَيَّر فيما يهذي!! فإن لم تثبت أني رددت على عالم في نظرك – في غير باطلٍ معتقده عند أهل السنة وجزت الحد المشروع في التنكيت على مخطئ أو خاطئ في نقد أهل العلم

والفهم فضلاً عن أن يقع مني عدوان تخلقه إفكاً فأنت المتخبط الباهت! والمهذار المتهافت!

فلو كنت نقلت ما قلناه في التعليق نقلاً غير مبتور لَبانَ للقارئ الكريم بأول نظرة ما تنطوي عليه وترمي إليه ومَنْ هو المعتدي الأثيم! وحيث أن الأصل غير بعيد من متناول طالب الحق يكون مدى نعرتك الخبيثة ساعة!

رأيتم أن رباع العلوم خلت عن أسامة أبي الشبلين وصفا الجو لثعالة أبي الحصين فأخذتم تملؤن الكون بضباحكم في مسائكم وصباحكم!

وقد اتخذتم قادة الضلال أئمة لأنفسكم، وأخذتم تجاهرون بما كنتم تتناجون بينكم في أمسكم! ولكن لا تأمنوا أن يخلو الحق من أنصار يلبسونكم قميصاً من نار! وكم حاول أسلافكم الحشوية انتهاز الفرص من ضعف الإسلام في الغابر! فأرداهم حجج الحق صرعى لا ولي لهم ولا ناصر!

تقول: (يجب أن يكون له حد يقف عنده)؟ نعم يجب أن تعلم أنت ومن تستمد منه إلهامك الفاجر أن الحق إنما يقفل حيث يقضي على الباطل فيزهقه!

وأما قولك بعد نقلك ما ذكره ابن فهد في الشرائحي فمن أوقح تحريف للكلم عن مواضعه في صفحة واحدة لا يحجز بين كلام ابن فهد وكلامك غير سطر واحد، وإنما كان الرجل أعجوبة في الملح والنوادر، وأنت جعلته أعجوبة في علم السُّنَّة! ومعرفته بأمثال ما ذكرنا من الأجزاء وكونه يذاكر في الرواة

المتأخرين وإلمامه بالفرائض – علم أسبوع – لا يجعله صاحب حظ في علم أصول الدين على مذهب أهل الحق!

فسل أهل العلم هل «إثبات الحد لله تعالى وأنّه قاعد وجالس على عرشه وأن الأشاعرة زنادقة» من مَعتقد أهل الحق أم من نحلة المجسمة الحشوية؟! فإذا لم تجعله عامياً في علم أصول الدين تسيء إليه في نظر الجمهور حيث تريد الإحسان إليه فاعذرني إذا قلت: هذه صداقة جاهل يأباها الشرائحي وغير الشرائحي.

وإليك ما ذكره بعض أئمة السنة في أواخر القرن الرابع وفيه ما يستنير به طالب الحق بعض استنارة باعتبار أن المسألة ليست بِهَيِّنة عند من يخاف الله فيما يصفه به، فلعله مما لم تطلع عليه للآن.

قال سيف السنة الأستاذ الإمام أبو منصور البغدادي الشافعي في كتاب «الأسماء والصفات»: إن الأشعري وأكثر المتكلمين قالوا بتكفير كل مبتدع كانت بدعته كفراً أو أدّت إلى كفر؛ كمن زعم أن معبوده له صورة أو حد أو نهاية أو يجوز عليه الحركة والسكون.........

ولا إشكال لذي لب في تكفير الكرَّامية مجسمة خراسان في قولهم: إنه تعالى جسم له حَدٌّ ونهاية من تحته، وأنه مماسّ لعرشه، وأنه محل الحوادث، وأنه يحدث فيه قوله......

فعليك الآن إما أن تجاهر بأن ما كان يقرره الشرائحي صواب حتى نطلع على جلية أمرك وتنكر ما عزوناه إليه فنفقأ في عينيك الحُصْرُم.

وأراك تتبسط في جعل الشرائحي أعجوبة في فقه المذهب الشافعي بخلاف الواقع والله من وراء قصدك! هب أنه كذلك فدونك ما يقوله أحد أئمة الشافعية التقي السبكي في «السيف الصقيل»:

[وأفسدوا (أي الحشوية) اعتقاد جماعة شذوذ من الشافعية وغيرهم، ولا سيما من بعض المحدثين الذين نقصت عقولهم أو غلب عليها مَنْ أضلهم فاعتقدوا أنهم يقولون بالحديث، ولقد كان أفضل المحدثين بزمانه بدمشق ابن عساكر يمتنع من تحديثهم ولا يُمَكّنهم من أن يحضروا بمجلسه، وكان ذلك في أيام نور الدين الشهيد وكانوا مستذلين غاية الذلة] انتهى.

وأما قولك: (والأمية كما يعلم القارئ غير العامية...إلخ): فإياك أن تُسْمِعَ هذه الكلمة أصغر طالب في الأزهر أو في إحدى المدارس لأن من مبادئ ما يتلقونه في دروس الفقه الإسلامي «ولا تصح إمامة الأمي إلا لأمي مثله»!! فجدّ عجيب أن تجهل أن الأمي مَنْ بقي على ما ولدته أمه من غير تعلم الكتابة والقراءة! والأمية معجزة عظمى في النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم! ولكنها عجز في غيره ومنقصة عند سلامة الآلات! أفهل يتخذ الأمي إماماً إلا أمي مثله؟!

ولا أدري ولا المنجم يدري من أين انتقلت من بحث المصابين في بصائرهم إلى الكلام في البصراء من أهل العلم وليس هذا شأن الصاحي؟! فكم من بصير سلبه الله نعمة البصر فعوَّضَه من ذلك بزيادة في نور بصيرته فأصبح صاحب حظ باهر فيعلم أو علوم كَالأستاذ الكبير العلاّمة فيلسوف الأزهر الشيخ يوسف الدجوي - متّع الله المخلصين بأنوار علومه وأدام بقاءه - وهو في العلوم آية بالقطر المصري! وكم رأينا من البصراء من يستظهر «الجامع الصحيح» للبخاري ونحوه!

مَالَكَ والإمام الترمذي صاحب «السنن» وابن سيده صاحب «اَلمحكم» وما في «نكت الصفدي» من الرجال، وأنت قلما تُفَرِّق بين من عماه طارئ أو غير طارئ؟! أهلاً بالأستاذ في كل شيء، أكان الترمذي ممن لا يكتب ولا يقرأ أم عمي وبقي ضريراً سنين من كثرة بكائه في أواخر عمره وهو القائل:

«كنت في طريق مكة فكتبت جزأين من حديث فلقيت الشيخ، وطلبت أن أسمعها عليه، فأجابني وأخذ يقرأ عليّ من لفظه، وكنت أظن أن الجزأين معي فإذا هما ليسا معي، وإنما كان معي جزآن بياضان فبقيت أمسكهما وأسمع لفظ الشيخ، فلما رأى أن في يدي بياضاً قال: أما تستحي مني فأعلمته بأمري، وقلت: أحفظه كله قال: اقرأ فقرأته عليه فلم يصدقني وقال: استظهرت قبل أن تجيء، فقلت حدِّثني بغيره فحدثني بأربعين حديثاً وقال: هات؛ فأعدمَا عليه ما أخطأت في حرف»انتهى.

هكذا يفضح نفسه من يدخل فيما لا يعنيه!!

وأما قولك : (**ويسب نفسه قبل أن يسبهم من يُفَسِّر أُمِّيَتهم بالعامية كما فعل الكوثري في تعليقه على قول ابن فهد في الشرائحي ص ٢٦١**)[(١)] فدليل آخر على أدبك الجم وعلمك بكل شيء مرحى بك! أهؤلاء الرواة الذين لا يعرفون القراءة والكتابة من خواص أهل العلم أئمة أولو شأن؟!

ويَسُبُّهم من يجعلهم في عداد العامة؟!

أما علمت أن العامي مَنْ لا يعرف الأحكام بحججها ومن يكون في مرتبة التقليد من العالم بها؟ وهاك ما يفيدك ونحن لا نبغي جزاءً عليه منك ولا شكوراً:

قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه»:

[أما من يَسُوغُ له التقليد فهو العاميُّ الذي لا يعرف طرق الأحكام الشرعية فيجوز له أن يقلّد عالماً ويعمل بقوله، وحكيَ عن بعض المعتزلة أنه لا يجوز للعامي العمل بقول العالم حتى يعرف علة الحكم؛ وإذا سأل العالم فإنما يسأله أن يعرِّفه طريق الحكم فإذا عرفه وقف عليه وعمل به؛ وهذا غلط لأنه لا سبيل للعامي إلى الوقوف على ذلك إلا بعد أن يتفقه سنين كثيرة ويخالط

---

(١) حيث قلنا عند قول ابن فهد في الشرائحي: (ونشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب...) تعليقاً عليه: [تراه نشأ عامياً لا يكتب ولا يقرأ كالغسولي من مشايخ الذهبي وابن أبي عبد الله العسقلاني أحد مشايخ ابن تيمية، ولأمثالهم كثرة بين الرواة على اختلاف القرون...].

الفقهاء المدة الطويلة، ويتحقق طرق القياس، ويعلم ما يصححه ويفسده، وما يجب تقديمه على غيره من الأدلة وفي تكليف العامة ذلك تكليف ما لا يطيقونه ولا سبيل لهم إليه].

وبه تلم من هو العامي وغيره!! وبهذا البيان ظهر أن من يلوك في فمه أخذ الحكم من الكتاب والسنة فقط من مصلحي البقرة ومهلكي الشجرة والتمرة! ممن لا يجهلهم أهل العلم فعامي في نظر الفقهاء!!

وأظن أنه اتَّضَح بما سردناه في الأمية والعامية والبُصَراء مَنْ سَبَّ نفسه هل هو الكوثري أم الكاتب الشهم السري!!

وأما قولك: (وظن الكوثري أن المجال اتسع أمامه للطعن بأئمة الحديث فانتهز هذه الفرصة وقال في تعليقه: ولا مثالهم كثرة بين الرواة على اختلاف القرون بل غالبهم بمجرد تعلمهم حروف التهجي في الكتاتيب ينصرفون إلي الرواية وإلى مجالس السماع من صغرهم قبل تحصيل مبادئ العلوم الضرورية فيبقون من أبعد خلق الله عن النظر والتبصر.....)

فدليل طريف على أن الراوي والمحدِّث وأئمة الحديث سواسية في نظر وأنك أستاذ في كل شيء درست الموضوع درساً وافياً! فاعذرني إذا قلت أن أسيادك قد غلطوا في إحالة الأمر إليك!!...

أما تعلم أن الطعن في المطعون من فروض الكفاية؟! وأن تبيين مراتب أهل العلم كذلك لئلا يَغْتَرَّ مَنْ لا يعلم أحوالهم فيترلهم غير منازلهم وبهذا جرت سنة العلماء!

يظهر أنه ما أفادكم الشيخ طاهر شيئاً في هذا الصدد، ولم تطالعوا كتاباً في هذا الموضوع فلا غرو إذا ظهرت بهذا المظهر لأنه ما لِكُلٍّ إلا مهنته!

قال الذهبي في أول «ميزان الاعتدال» قبيل ذكر التراجم:

«**العمدة في زماننا ليس على الرواة بل على المحدثين والمفيدين .... ولو فتحت على نفسي تليين هذا الباب لما سلم معي إلا القليل إذ الأكثر لا يدرون ما يروون ولا يعرفون هذا الشأن! إنما سمعوا في الصغر واحتيج إلى علو سندهم في الكبر...**»انتهى.

وفي «زغل العلم» للذهبي: «**وأما المحدثون فغالبهم لا يفهمون ولا همة لهم في معرفة الحديث ولا في التدين به، بل الصحيح والموضوع عندهم بنسبة وإنما همتهم في السماع على جهلة الشيوخ وتكثير العدد من الأجزاء والرواية** .... فأي شيء ينفع السماع على جهلة المشيخة الذين ينامون والصبيان يلعبون، ولشبيبة يتحدَّثون ويمزحون، وكثير منهم ينعسون ويكابرون والقارئ يصحف وإتقانه فلي تكثير (أو كما قال) والرضع يتصاعقون بالله خلونا ضحكة لأولي العقول» انتهى.

وقال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»: [**واعلم أن عموم المحدثين حملوا ظاهر ما يتعلق بصفات الباريء سبحانه على مقتضى الحس فشبهوا لأنهم لم يخالطوا الفقهاء فيعرفوا** حمل المتشابه على مقتضى المحكم، **وقد رأينا في زماننا من يجمع الكتب منهم ويكثر السماع ولا يفهم ما حصل، ومنهم ما لا يحفظ القرآن ولا يعرف أركان الصلاة!** فتشاغل هؤلاء على زعمهم بفروض الكفاية عن فروض الأعيان، وإيثار ما ليس بمهم على المهم، من «تلبيس إبليس»] انتهى.

وقال الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه»: [**وأكثر كَتَبَةِ الحديث في هذا الزمان بعيد من حفظه؛ خالٍ من معرفته فقهه؛ لا يُفَرِّقُون بين مُعَلَّل وصحيح، ولا يميزون بين مُعَدَّل من الرواة ومجروح**، ولا يسألون عن لفظ أشكل عليهم رسمه، ولا يبحثون عن معنى خفي عنهم علمه، مع أنهم أذهبوا في كتبه أعمارهم، وبعدت في الرحلة لسماعه أسفارهم، كل ذلك لقلة بصيرة أهل زماننا بما جمعوه، وعدم فقههم بما كتبوه وسمعوه، ومنعهم نفوسهم عن محاضرة الفقهاء وذمهم مستعملي القياس من العلماء، لسماعهم الأحاديث التي تعلق بها أهل الظاهر في ذم الرأي والنهي عنه والتحذير منه، وأنهم لم يميزوا بين محمود الرأي ومذمومه! بل سبق إلى نفوسهم أنه محظور على عمومه ثم قلدوا مستعملي الرأي في نوازلهم، وعوَّلوا فيها على أقولهم ومذاهبهم، فنقضوا بذلك ما أصَّلوه

واستحلوا ما كانوا حَرَّموه، وحق لمن كانت حاله، هذه أن يطلق فيه القول الفظيع، ويشنع عليه بضروب التشنيع].

ولو أخذت أسرد ما قاله أئمة الحديث فضلاً عن الفقهاء والمتكلمين وأهل النظر في هذا الصدد على اختلاف القرون لطال وأَمَلّ! وبمجرد النظر إلى ما نقلت يظهر ما كان عليه غالب الرواة لا سيما الذين تعدوا طورهم وزَجُّوا أنفسهم في مضايق الأبحاث النظرية وفيما لا يحسنونه من العلوم في كل قرن! ولبسط كل ذلك مقام آخر!

ومن قارن ما نقلته عن هؤلاء الحفاظ في حقهم مع قولي فيهم لا يجد كلامي إلا دون تنديدهم فيهم بكثير لاكتفائي بلفت النظر إلى مراتبهم حتى لا يغترَّ الجمهور بهم فيندفعوا نحو الاقتفاء بأثر أُنَاسٍ طفقوا ينبشون عن بدع مطمورة وأهواء مقبورة يبعثونها من مراقدها! وقد تسببت في سابق الأجيال إلى فتن هوجاء تشيب منها الأطفال! وتدهورت بها تلك العلوم الناضجة وتلك الحضارة الزاهية من قمة مجدها إلى هوة سحيقة لا يعلم غير الله قرارها! واستمروا على إذاعة تلك البدع ونشرها بين المسلمين جهدهم منذ ثلاثة أرباع قرن كامل على أحدث طراز من الدعاية وأخذت تتكاثف ظلماتها في الأعوام الأخيرة حيث انشغل عنهم أهل الشأن في أقطار المسلمين بكارثة عظمى عمت بلواها البلاد! والفاتنون انتهزوا الفرصة فشرعوا يهرولون نحو مرماهم بخطىً واسعة تحت ستار السنة والحديث! وتحت عنوان مذهب الرواة وأهل الحديث!

وجعلوا ذلك ستاراً لبدعتهم يعلمون جيداً أن العامة تنخلع أفئدتهم إذا سمعوا لفظ الحديث! وأهل الحديث غير منتبهين إلى ما دُسَّ تحت هذا الاسم من السم! فلو ساير السواد أولئك الأغنام وسكت أولو الأمر كما نرى مدة أعوام - لا سمح الله - تزول بأيدي هؤلاء الهمج البقية الباقية من العلوم وأسباب الحضارة التي كانت غرة في جبين الدهر وفخراً خالداً على ناصية الزمان للمسلمين!

وقد شرع يأخذ بخناق الإسلام كابوسان ثقيلان كابوس؛ الجمود وكابوس الجحود يمشيان نحو اتجاههما مشي القطا على نظام مدبر، والجمهور وأهل الشأن على الحياد كأنه لا شأن لهم لا في هذا الدين ولا في هذه البلاد!

ومن أعوزهم المآكل من أصحاب الأقلام الوضيعة ينحازون إلى هؤلاء أو إلى هؤلاء! ولم يسبق لهذه الحالة مثيل في التاريخ الإسلامي يستوجب مواصلة السعي في دفع ضرر الفريقين عن المجتمع استيجاها اليوم لاستفحال أمر القبيلين وتقاعس أولي الشأن عن واجبهم! ولا يغني الاشتغال بأحد الفريقين عن الاشتغال بالفريق الآخر! فيوم كان يقلع القرامطة الحجر الأسود من الكعبة المعظمة كان البربهاري يصيح بنعرته الفاضحة في عاصمة الخلافة!

هذا إلحاد خليع! وذاك همجية أولي أمر فظ فظيع! كلاهما إنما يعيش بصاحبه والتغاضي عنهما مفض إلى هلاك الحرث والنسل!

وفي التاريخ عبر لمن درسه حق الدرس واعتبر! هذا ما جعلني أهتم بالأمر وحاشا أن أكون أرمي بكلامي إلى انتقاص حملة علم من العلوم الإسلامية فيما أحسنوا وإنما مرادي التنبيه على كثرة العوام بين الرواة بحيث أصبح أهل العربية لا يعوّلون على ألفاظ رواياتهم في قواعد اللسان!

وفي تصحيفات المحدِّثين كتب جَمَّة لنقاد أهل العلم بالحديث، وما يفهم كثير من كبارهم من الأحاديث وفتاواهم تسطر في عداد النوادر والمِلَح! فكيف يتخذهم العاقل قدوة في أخطر المسائل؟!

ومَن نظر إلى تراجم الرجال من حملة الآثار أو درس حياتهم على طول الأدوار يظهر له أن فيهم كل فرقة من المبتدعة قل بينهم مَنْ تفقّه واشتغل بعلم أصول الدين كما يشتغل أهل العلم **فمن قال من المبتدعة: (مذهب أهل الحديث كذا) فإن أراد جميعهم فكاذب! لأنه لا يجمعهم معتقد واحد وإن أراد بعضهم فليس بعضهم أولى من بعض بهذا العنوان!** فلا يمكن من أن يجعلهم قنطرة لبدعته وترويج سلعته! فشأن الاعتقاد إلى علماء أصول الدين، وأمر العمل والحلال والحرام إلى الفقهاء، وهكذا فلا يؤخذ الفقه من المتكلم ولا الكلام من المحدث ولا الحديث من الصَّحَفي!!

قال ابن قتيبة: «إن المنفرد بفن من الفنون لا يعاب بالزلل في غيره وليس على المُحَدِّث عيب أن يَزِلَّ في الإعراب، ولا على الفقيه أن يزل في الشعر، وإنما يجب على كل ذي علم أن يُتْقِنَ فنَّه إذا احتاج الناس إليه فيه! وانعقدت له

الرياسة به! وقد يجتمع للواحد علوم كثيرة - والله يؤتي الفضل من يشاء» انتهى.

وإنما العيب هو التعويل على الرجل فيما لا يتقنه!!

وأما قولك: (....... **خطر على باله حينئذ خاطر خبيث** .....)

فالخبيث كل الخبث من ينطوي على مثل هذا الخاطر! ويتقول على المخلصين وطواياهم بخطراته الخبيثة مما أوحاه إليه شيطانه الأخبث! والله يعلم على بال مَنْ خطر هذا الخاطر المنفور على خلد كاتب هذه السطور أم على قلب ذلك القلم المأجور!!

فالآن فقط ظهرت جلية أمرك وما تنطوي عليه من النِّحْلة المرذولة فأنت حقاً «برهاري سني»!!

ومن معتقد هذه النحلة الباهتة «الحكم بالخاطر، والجهر بالتشبيه والمكان، وتكفير مخالفيهم، والتحزب لآل حرب» كما يذكره مطهر ابن طاهر المقدسي ومحمد بن أحمد البشاري المقدسي وغيرهما.

وكان غالب الحنابلة تحت راية هذا البرهاري المتغلب على عقول العامة ببغداد حتى كان يضطر الإمام الأشعري أن يفاوضه ويؤلف «الإبانة» لأجله ليتدرج بهم إلى السنة لكنهم بقوا على عمايتهم وامتلأت كتب التاريخ بفتن إمامكم البرهاري هذا وفضائحه! وحقاً أنا متعرض لإمامكم هذا وأمثالهم،

- أعظم الله أجري فيمن أتكلم فيه منهم - فستلقون ما قدَّمتم يوم يُدْعَى كل أناس بإمامهم!!

وقولك: (رأى الكوثري أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول في غلمان الترك الذين استعجم الإسلام على أيديهم زمن الدولة العباسية[1]: جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم، لبسوا الإسلام على أبدانهم ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته، ثم عدا على الإسلام آخرون كالتتار وغيرهم، ومنهم من تولى أمره. أيُّ عدوٍّ لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم) انتهى.

كلمة الأستاذ الإمام التي تسوقها في غير مساقها أراك تلهج بها كثيراً فيما تكتب إلى أسيادك وإلى غير أسيادك، فلعل ذلك لحاجة في النفس أو فقر في المادة! ولكن اتقوا الله فقد قضيتم بهذه النغمة بالأمس على «شيخ عريق في المجد» وعلى «القضية» وأنتم اليوم على شرف القضاء بالنَّعْرَة نفسها على «شيخ ....» وقد نسيتم – والكذوب إذا لم يكن ذكوراً يفضح نفسه – أن الأستاذ الإمام هذا كان تركماني الدم مصري الدار!!

---

(١) وكان مستعرباً زمن الدولة الأموية بيمن نقيبة قادهم الأطهار!! حذفت الديلم من جنب الأتراك في كلام الأستاذ الإمام، والنساء قد يذكر؛ ولعل هناك رحماً ترعاه في عروبتك! كأن الناس أباحوا لك أن تتصرف في كلامهم كما تشاء!

وبعد أن يشهد لك الأستاذ الحداد غير منكور أن تكون من الناطقين بالضاد من عهد نصر سليل الولي الكبير قطب الحنابلة ببغداد، وأثره وآثاره وخوارقه مشهودة في البلاد مشهورة في العالم الإسلامي مدى الآماد وقد أقرَّ لكم بالنسب الرفيع ابن الساعي في «تاريخ الخلفاء» وفي أخبار البيوتات العلوية سجله السادة النقباء وبيتكم بجلق بيت فضل وصلاح وتقوى كل ذلك غير منكر! وإنما المنكر منك هذا الاتجاه وهذه الدعوى دعوى الجاهلية الأولى والدعاية لها! وللظلمة في عهد النور! هذا هو المنكور، وأرى التوجه نحو القبلة الريحانية الفقراء مما يسخر منه ريحانة الألباء، فسترى ما تجني إذا تماديت في هذا التجني!

وطرق أبواب القوميات الممقوتة فَخٌّ نصبه الغَرْبُ للشرق فتردَّى في هذه الهوة السحيقة من أراد الله هلاكه من الشعوب! وليس من مصلحة الإسلام ولا من مصلحة العروبة ولا من مصلحة الشعوب في شيء طَرْق هذه الأبواب، ولا هذا من شأن من يعتقد انتهاء شعوب البشر إلى نفس واحدة أو يرى الإخاء الإسلامي شيئاً يذكر، ومثل هذا يجب أن لا يخفى على مثلك مما يتظاهر بالدفاع عن الإسلام! فإذا اضطررتني أفيض في هذا البحث الممقوت بما لم تر عينك ولا سمعت أذنك، وإن كنت تظن بنفسك أن لها صلة بالعروبة وإخلاصاً لها أكثر مما لكاتب الأحرف فاعذرني إذا قلت إنك ممن يَعْرِف بما لا يَعْرِف!!

وما من شعب إلا وله مناقب ومثالب والرجل المخلص لشعبه وللإسلام هو من يذكر مناقب أسلافهم ومفاخر آبائهم من غير بخسٍ لحقهم استنهاضاً لهممهم إلى المعالي وينبههم على مثالبهم من غير تحريف ليتوقوها فيخلد لهم المجد على منصة الدهر! وأما من يجعل المناقب مثالب والمثالب مناقب فيمن يشنوه أو يهواه ويسعى لإثارة الضغائن بين الشعوب فهو عدو الإسلام، عدو الشرق، عدو الشعوب، رذل سفيل موحش أول ما يجني مثله على نفسه!!

أما الأستاذ الشيخ محمد عبده فإمام النهضة المصرية غير مدافع، وله فضل عظيم على مصر وعلى الشرق وعلينا جميعاً! عرف الداء وسعى جهده في مداواته بإخلاص، جَدَّ في إرجاع الحالة إلى عهد سيادة العلوم الناضجة والعقول الراجحة القائمة بحضارة زاهية فاضت خيراتها من هذا الدين الحنيف ولم يُرِد رد الأمر إلى الجاهلية الأولى المطوية! المنطوية على عداء العلوم وعداء العقول وعداء الحضارة! ولم يكن يدعو إلى مسايرة شذاذ فسدت أمزجتهم بسوء مدارستهم للعلوم، وحصل في تفكيرهم من الاختلال ما يحصل في معدة المتخوم!!

وكان - رحمه الله - من أبعد خلق الله عن إثارة الكوامن بين الشعوب الجاهلة، وله في استنهاض الهمم وتوحيد الصفوف طريقة مُثْلى، وخدم الأمة ما شاء الله أن يخدمها فمضى لسبيله وأبقى ذكرى جميلة ومع ذلك كله لم تكن جميع آرائه وأقواله بعيدة عن متناول النقد لا سيما بعد رحلاته الغربية! فإنه كان حصل له بعض تَطَرُّف في بعض أفكاره وآرائه!! ومن ثمة ترى الأستاذ المنفلوطي

– رحمه الله – من أنجب تلامذته - ينكت على أستاذه في ذلك بحث، وعذره في المناظرات عذر بقية النظار في سلوكهم الطرائق الجدلية والإقناعية حين رأوا ذلك أنجع في إلجاء الخصم إلى الاعتراف بالحق! ولذلك يقول أهل العلم: «إن قول العالم في أثناء مجادلته لا يعتبر قولاً له في غير مساقه».

وكلمة الأستاذ الشيخ عبده – التي يريد صاحبنا أن يستغلها في كل مرة ظناً منه أن الأستاذ الإمام كان يشاركه في مرضه العقلي، والأستاذ الحكيم براء منه – كلمة جدلية لا تقوى أمام النقد العلمي لأن الإسلام إذا استعجم إنما يستعجم بأيدي حملته وهم العلماء دون الجنود، وإن كان استعجامه في عهد العباسية بأيدي العلماء وقد حصل ذلك في زمن الأموية قبلهم.

قال الحافظ ابن خلاّد الرامَهُرْمُزِي في «الفاصل»: «حدثنا بكر بن أحمد ابن الفرج الزهري، حدثنا العباس بن الفرج الياشي، حدثنا عبد الملك ابن قريب قال: دخل عبد الملك بن مروان المسجد الحرام فرأى حلق العلم والذّكر فأُعْجِبَ بها فأشار إلى حلقة فقال: لمن هذه الحلقة؟ فقيل: لعطاء، ونظر إلى أخرى فقال: لمن هذه؟ فقيل: لسعيد بن جُبَير، ونظر إلى أخرى فقال: لمن هذه؟ فقيل: لميمون بن مَهْرَان، ونظر إلى أخرى فقال: لمن هذه؟ فقيل: لمكحول، ونظر إلى أخرى فقال: لمن هذه؟ فقيل: لمجاهد، **وكل هؤلاء من أبناء الفُرْس الذين كانوا باليمن** فرجع إلى منزله وبعث إلى أحياء قريش فجمعهم، فقال: يا معشر قريش كنا فيما علمتم فمنَّ الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلّم وبهذا

الدين، فحقرتموه حتى غلبكم أبناء الفرس، فلم يَرُدَّ أَحَدٌ إلا علي بن الحسين فإنه قال: ذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء، ثم قال عبد الملك: ما رأيت كهذا الحي من الفرس ملكوا من أول الدهر فلم يحتاجوا إلينا، وملكناها فما استغنينا عنهم ساعة» انتهى. هذا بلد واحد.

وأما قول الأستاذ (جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم...) إلخ، فلا أراكم تجعلون الأستاذ الإمام فوق ابن خلدون منزلة في التاريخ، وفيهم يقول ابن خلدون ما لفظه:

«يجلبون من دار الحرب إلى دار الإسلام في مقادة الرق الذي كمن اللطف في طيه، وتعرفوا العز والخير في مغبته، وتعرَّضوا للعناية الربانية يدخلون في الدين بعزائم إيمانية وأخلاق بدوية لم يدنسها لؤم الطباع ولا خالطتها أقذار اللذات ولا دنستها عوائد الحضارة، ولا كسر من سورتها غزارة الترف...... فيستعرض أهل الملك منهم ويتنافسون في أثمانهم لا لقصد الاستعباد إنما هو إكثاف للعصبية وتغليظ للشوكة..... ثم يترلونهم في غرف الملك ويأخذونهم بالمخالصة ومعاهدة التربية ومدارسة القرآن وممارسة التعليم حتى يشتدوا في ذلك ثم يعرضونهم على الرمي والثقافة وركض الخيل في الميادين والمطاعنة بالرماح والمماصعة بالسيوف حتى تستد منهم السواعد وتستحكم الملكات... عناية من الله سابقة، ولطائف في خلقه سارية، فلا يزال نشو منهم يردف نشواً وجيل

يعقب جيلاً والإسلام يبتهج بما يحصل به من الغَنَاء......» انتهى. فقارن كلام ابن خلدون هذا مع كلام الأستاذ الإمام ثم احكم بما شئت.

وأما قول الأستاذ: (..... يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته....) فيكاد يكون من قبيل: كلام ما يبطله معه! لأن من عبد صنماً في خلوته واطلع عليه مُطَّلِعٌ كيف لم يفضحه ومكَّنه من مخادعته الناس بصلاته مع الجماعة؟ وهذا أقرب أن يكون كلام شاعر من أن يكون كلام عالم حكيم! ولعله من قبيل الصنم الذي أذاعوا أن الهروي صاحب «ذم الكلام» كان يحمله تحت سجادته يتعبده في خلواته!!

وقول الأستاذ: (ثم عدا على الإسلام آخرون كالتتار وغيرهم...) أليم أليم جداً إذ كان خليفة بغداد هو الذي طلب إلى المغول أن يزحفوا إلى الخوارزمية فتغذوا بهم ثم عرجوا إلى العاصمة فتعشوا بها وما أُكِلَتْ العاصمة إلا يوم أكلت الخوارزمية كما في المثل المعروف، ولولا وقوف الجنود البواسل المصرية دونهم لكان الإسلام أثراً بعد عين كما يقول ابن فضل الله العمري وغيره، ولأصبحت الحالة إذ ذاك كما نرى اليوم.

وأما قول الأستاذ: (وأي عدو لهؤلاء أشد من العلم ...) فإلى التاريخ والآثار الخالدة. فلعله ظهر لك بما بسطناه هل هذه الكلمة من الأستاذ برهانية أم جدلية لا تقوى أمام النقد العلمي[1]!!

وأما قولك: (رأى الكوثري أن الأستاذ الإمام يقول ذلك في أجناد الترك ومماليكهم زمن المعتصم ومن بعده فأراد أن ينتقم لهم من المحدثين في الأقطار العربية...).

فما حيلتي فيمن يخلق ما يقوله؟! وتُوالي البراهين صفعاتها على حَرِّ وجهه فيتمادى في باطل ما تخط يمينه ولا يتندى جبينه إذ أذهلته حجج السنة! وهو غافل عما يخرج من فيه! وقد ضل سبيل ما فيه!

مالي والأجناد ومالك والمحدثين إن كان أجناد الترك نيل من جانبهم عدواناً أو حقاً ليس الذي نال منهم المحدثون حتى ينتقم لهم منهم! هذا منطق ذاهل غافل مصروع في أثناء دفاعه عن الباطل! أَوَ لا تدري أَوَ غالب المحدثين والرواة من الأعاجم ونسبتهم إلى القبائل العربية نسبة ولائية؟! ومن يكون

---

(١) ولو كان المحب درس رسالة «التوحيد» للأستاذ من نسخة مطبوعة في حياته وتفهَّم مغزى قوله (....وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه، فثارت الشبهات بعدما هبت على الناس أعاصير الفتن...)، وقوله: (.... والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالاً وأضل اعتقاداً من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوى إلى مخالفتها....) وقارنهما بقولنا لما حاول أن يترس بكلمته التي ينقلها مستبيحاً التصرف فيها كأنه خليفته مع أنها ليست مما يقيه من وقع صفيح الحق الأبلج!

صليب النسب فيهم أقل قليل، وهذا أمر لا يجهله من أَلَمَّ بشيء من كتب الرجال! أليس الذي نال منهم في نظرك الأستاذ الإمام أفيعقل أن يؤخذ الرواة وهم أبرياء من النيل منهم بذنب غيرهم بل الرعاع وجهلة الأجناد كانوا يؤآزرون من تكلّم فيهم من حشوية الرواة على طول القرون، هكذا الداء الدفين يفضح صاحبه كل حين!

وأما قولك: (فقال في هذه التعليقات الخبيثة ذاكراً «الكثرة» من أهل الحديث بل «غالبهم»...). فما لكرام أهل الفضل في أقطار الأرض يتوارد منهم الشكر من عام ويثنون عليها خيراً ويستطيبونها ويعدُّونها من المتانة بمكان ويجعلونها خدمة جلى؟! وما عليَّ إذا استخبث الجُعْلُ الشذا[1]! أو تقوَّلَ مَنْ هذي! والطباع تختلف!

وأنت لا تزال تُحَرِّفُ الكلم عن مواضعه فتجعل المحدثين وأئمة الحديث في محل «الرواة» في تعليقنا كل مرة وأنت حقاً ممن لا يفرق بين المحدِّث وبين مَنْ لا يؤوى.

فيا للعجب كيف رخصت خلع الألقاب عندكم حتى أصبحتم تُلْبِسونها كل هزيل ممقوت! أو جلمود منحوت!!

(١) أي: ما عليّ إذا نفر الجعل؟! وهو (نوع من الخنافس إذا نفر من الرائحة الطيبة حيث أن الخنافس رائحتها كريهة، وإذا حلّت في مكان جعلت الريح الكريه فيه) وما عليَّ إذا تكلم بالكلام من يهذي فلا يدري ما يقول؟! مصححه.

وأما قولك تعلقياً على قولنا: «ولم يستأصل الإسلام من عقولهم بعد شأفة نحلهم التي كانوا عليها قبل الإسلام» فدليل طريف آخر على مقدار جدارتك بطرق هذه الأبحاث ومبلغ عنايتك بتاريخ انتشار الإسلام! أعلمتم أن الإسلام انتشر في أعوام يسيرة في مختلف الأقطار، وانتهى الأمر أم استمر اعتناق من يعتنق الدين الإسلامي من أهل الأديان السابقة استمراراً يتوازن مع قوة الإسلام وقيام أولي الشأن بواجبهم في الدعوة والنشر؟!

ومن أين للإسلام أن يستأصل ما في عقلك مثلاً إذا لم تتهذب بالعلم والإخلاص وأنت تبطن أدواءك! ونظر الحكام وسيطرتهم على ظواهر الخلق فقط فمن ظهر منه ما ورثه من خرافات ما كان ينتحله سابقاً بادر الحاكم إلى تنفيذ ما يجب في حقه! وقد جرت الأمة على ذلك من عهد التابعين إلى أدوار ضعف الإسلام في فلسطين وغير فلسطين، وفي الشام وغير الشام، وفي العراق وغير العراق، مما لو دُوِّنَ ذلك لأتى كتاباً حافلاً! وتجد بعض أذناهم في الجزء الأول من «نهاية الأرب» عند ذكر الصخرة، وفي كتب الموضوعات المبسوطة، وكتب الملل والنِّحَل ممن قد يكون بينهم من اتخذتم أئمة لكم!!

وَجُلُّ ما دخل في المعتقد والعوائد من البدع موروثة من الأديان الباطلة ومُتَسَرِّبة منها! وقد قال عليه السلام: **«لتتبعن سُنَن من قبلكم»** اليهود والنصارى، وفي لفظ: **«فارس والروم»**!!

وما دخل في كتب الإسلام من الإسرائيليات وكتب أهل الكتاب كيف يخفي على مَنْ تَسَلَّق قمة منبر الإصلاح، وما اندس بين المسلمين من يهود ونصارى وصابئة على طول التاريخ وما راج بين العامة من خرافات إن كان أصبح عندكم بحيث يحتاج إلى التدليل فدعوا مهنتكم هذه إلى غيرها لأن ذلك يدل على أنكم ما عنيتم بشؤون الإسلام وإنما عنيتم بأن تلبسوا «قميصاً من نار» في سبيل «القضية».

وأما مسألة فلسطين وصلة دين اليهود بها في سابق الأجيال فإني اعترف أني مخطئ في ذلك وعلمت منكم الآن أنهم إنما كانوا في كُرَة المريخ كما أن النصارى كانوا بزحل والصابئة عند الزُّهرة «والرجوع إلى الحق أولى من التمادى في الباطل» والآن فقط تأكَّدْتُ أن أبا عبيدة ابن الجراح – رضي الله عنه – لما صالح السامرة بالأردن وفلسطين إنما صالح في المريخ وهناك أيضاً قطر بهذين الاسمين بل الآرامينون استأصلهم بخت نصر قبل دهور، ولم يذر منهم دياراً وكذلك لما استشار عمر – رضي الله عنه – مَنْ حوله من الناس بالقدس أين يبني المسجد؟ فأشار عليه كعب الأحبار اليماني الحمصي ببنائه حيث يكون مَنْ يصلي فيه متوجهاً على القبلتين وقابله الفاروق بما معناه يا ابن اليهودي تريد أن تصلي في مسجد المسلمين وتستقبل قبلة اليهود هذا ما لا يكون بل أَبْنِي حيث تستدبر قبلتهم. كان هذا أيضاً في المريخ ولعلكم تعذروني في جهلي ذلك كله لأني ما عنيت كثيراً باتجاهات التموجات البشرية.

وأما قولك: (وقد وقف حياته على البحث عما يقوله الخصوم في خصومهم ليذيعه في هذه التعليقات فيهدم حرمة الأئمة من قلوب الأمة).

فالمنة لله الذي صان وجهي أن أطرق غير بابه، وشغلني بالسنة ومنّزل كتابه، وجعل الكتب في خزائن العالم ريحانه قلبي أُزَاملها وأُسامرها في إقامتي وترحالي وصحتي واعتلالي منذ عرفت يميني من شمالي! وفيها ما يقوله أهل الحق في أهل الباطل، وما يأتفكه أهل الباطل في أهل الحق، وما يختلف فيه أهل الحق بعضهم مع بعض وما يتباين فيه أهل الباطل فيما بينهم من وجوه التخبط في الباطل!!

وفيها تراث الأولين ونخبة أعمار البارعين فيا لها من لذة عظمى بعد تحصيل المشاركة في العلوم من أهلها بها تتجلى ثمرات أعمال الأولين والآخرين وبها تنكشف الحجب عن الآراء المزوَّقة بيقين، وبها يعلم تفاوت ما بين الطوائف في التسبب إلى الهبوط السافل أو الارتقاء إلى أعلى المنازل! **ومن جعل نفسه تحت رحمة الطابعين واقتصر على ما أخرجوه للناس من مؤلفات المؤلفين فهو باخس الحظ في التبصر بمعارف أئمة الدين، ولو كان للعالم الإسلامي بعد حدوث الطباعة لجان علمية كبرى من الأخصائيين في العلوم كما يجب يَجْرُون على انتقاء أنفع ما أُلِّفَ في العلوم في مختلف القرون عن فحص تام وتدقيق شامل فَيُطْبَع ذلك تحت إشراف تلك اللجان كان في الإمكان**

الاكتفاء بالكتب المطبوعة، ولكن الطباعة تمشي على فوضى شاملة، وأخذت الرويبضة تتكلم في شأن الملة لا إشراف على عقائد المسلمين ولا على أخلاقهم وعوائده ولا قائم بتمييز النافع من الضار للمجتمع كما ينبغي وأولو الشأن ينصرفون إلى مصالحهم الخاصة قائلين: (مالي أنا)[1] ودعاة الأهواء أحرار في نشر دعايتهم بنظام مدبر لا واقف دونهم ولا راد عليهم بوجهه، يطبعون كتاباً لأحد الشذاذ أَلَّفَهُ على هوى خاص أو رأي فطير يسبب الاطلاع عليه الانحراف عن الجادة لكثير من القراء والكتاب في حد ذاته منقوض علمياً بحيث لا يقوم له قائمة بعد الاطلاع على هذا النقض!

(١) كتب أحد الخلفاء العثمانية إلى شيخ الإسلام في عهده (قبل ثلاثة قرون) يسأله عن أسباب التداعي في شؤون الأمة والضعف الطارئ على بنية الملة فكتب شيخ الإسلام تحت سؤال السلطان (مالي وهذا الأمر) وأعاده إليه ولما قرأه السلطان احتد غضباً وطلبه إليه ولما مَثُلَ بين يديه وأخذ يعاتبه على عدم إجابته عن سؤاله واجترائه على كتابة ما كتبه تحته قال شيخ الإسلام: أجبت عن السؤال! لأن أفراد المسلمين إذا انصرفوا إلى مصالحهم الخاصة ومنافعهم الذاتية وأهملوا العناية بما يعم ضرره الجماعة أو يشملهم نفعه وكل منهم يقول في نفسه (مالي وهذا الأمر) فإذ ذاك تكون الحالة كما نرى! وتكون الجماعة في سبيل الانحلال فاستحسن جوابه السلطان. وهذا الكلام جد حكيم ينطبق تمام الانطباق على أحوالنا لا سيما في مثل هذا الزمن الذي أصبحت أشغال الأفراد إلى الجماعات في كل شيء عند العالم المتمدن ولو لم يهمل جماعة المسلمين الإشراف الدقيق على شؤونهم العامة كعدم إهمالهم شؤونهم الشخصية لما طرأ هذا الوهن على مقومات الجماعة جماعة المسلمين وكل أمة لا تكون لها طوائف متفرغة للإشراف على مقوماتها كما ينبغي تحت عناية أفراد الأمة المعتنين بها جد عناية فعاقبتها البوار وتلك سنة الله في خلقه.

لكن النقوض على هذا الكتاب المنقوض لا تتطلب من خزائن العامل لأنها مفقودة من خزائننا بقضاء الله وبأيدي أُمَنائها وتَطَلُّبها من البلاد البعيدة فيها كلف فينخدع أناس بهذا الكتاب المطبوع ويتوالى طبع ما على شاكلته في الهوى أو سوء فهم مؤلفة فيصبح الحق باطلاً والباطل حقاً على مُضِيِّ الزمن!

وهكذا فتحدث فوضى عظيمة في تفكير الأمة وتظهر فيهم اتجاهات عجيبة تُفَرِّق كلمتهم فما عليّ إذا لم اقتصر على ما طبعه الطابعون من كتب العلم لأستفيد من مخطوطات الخزائن ما يفيد في جلاء الريوب وإبانة الحق كأن هذا ذَنْبٌ لا يُغْفَر عند هذا المصلح البصير! ويريد منا أن نسترسل في الاقتداء بأئمته أئمة الآراء الفجة وأئمة الأفكار غير الناضجة أئمة الجمود أئمة الجهل أئمة الظُّلمة! هذا مالا يكون في بلاد العلم والنور! وهذه إنما تروج في الأصقاع البعيدة عن العمران! وفي الفيافي القفراء المجهولة المترامية الجوانب التي ما يشع عليها نور غير نور الشمس! فهناك فقط تلقى هذه الدعاية قبولاً وقد تجد هذه النِّحْلَة في المدن مَنْ يعتنقها لكن بين زملاء أبي زيد أصحاب المبادئ الثابتة والمعتقدات الرصينة!!

وربما تلقى أيضاً مَنْ يسالمها بين من استطرف أطراف العلوم و لم يَغُصْ فيها غوص فاهم وتعوَّد التقليد الجامد في كل شيء(١) والاكتفاء بما ساقه الاتفاق إلى يده من الكتب ممن بقي في المدن مثل مَنْ في الفيافي في الحرمان عن نور غير ما تفيضه شمس السماء ومثل مَنْ يكتفي بما ساقه الاتفاق إلى يده من الكتب في تغذية العقل مثل من يتغذى في الأسواق الأهلية بما يصادفه من فول مدمس، وفسيخ مشمِّس! أو شيء آخر من هذا القبيل مسوّس أو مدوّد!!

أفهل يكون هذا كمن يتأنق في طعامه وشرابه بانتقاء أفضل ما يغذي به جسمه من أنواع الأطعمة الفاخرة وشأن الغذاء الضار إن كان قتل الفرد فالغذاء الضار للعقل يقتل الجماعة!!

وصاحبنا المتقوِّل من نحلته أن يحكم بالخاطر كما سبق! وهنا أيضاً حكم علينا بغايات حسب ما أوحى إليه شيطان خاطره غير أني ما فهمت مراده من الأمة! لأن لله أمماً أمثالنا فإن كان يريد أمة منهم غير أمة الإجابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا شأن لي بهم ولا بأئمتهم قاموا أم سقطوا!

---

(١) هذه الجملة تبين أن العلامة المحدث الكوثري – رحمه الله تعالى وأعلى درجته – لم يكن يرى التقليد الجامد بل كان يذمه! فما قيل عنه من التعصب لا يصح بل كان يدافع عن الإمام أبي حنيفة – رحمه الله تعالى – ويذب عنه تطاول المتطاولين فظنوه من المتعصبين! ومن سبر أقواله وتتبعها ونظر فيها يجده من أبعد الناس عن التقليد المذموم بل هو مجتهد فذ لم يعرف له أصحابنا السنيون قدره!! بل بقي علمه وفكره حياً بيننا وذهبت اهاماتهم هباء!

وإن كان يريد من الأمة أمة الإجابة ومن الأئمة أئمة المذاهب المتبوعة ممن أضاءوا سبل الهدى باجتهاداتهم فالذين يسعون في إزالة حرمته من قلوب الأمة هم فئة اللامذهبية وسعيهم المتواصل في البلاد في صرف وجوه العامة عن أئمتهم بدعوى الاجتهاد لأنفسهم والتهوس في أخذ الأحكام من أدلتها مُخَطِّئين هذا الإمام وذاك الإمام في مسائل ومسائل لا عن علم بل مقلدين لأناس مهوسين مثلهم! ونشرهم كتب الشذاذ في هذا الصدد وانتدابهم من يقوم باختلاق مثالب للأئمة وإذاعتها حاضر مشهود في كثير من البلاد منذ زمن غير قليل!

وقد مهدوا بذلك السبيل إلى اللادينية وجعلوا خطتهم قنطرة إليها حتى بان للجمهور المفكر (أن اللامذهبية قنطرة اللادينية) ولا أدري هل الطائفتان في الغاية مشتركتان من أول نشأتهما أم إفضاء الأولى إلى الثانية بمحض تسبب عن جهل ولكن الذي أدري أن اللامذهبية من أكثر الناس اتصالاً بهذا البوق المنفوخ اليوم وقبل اليوم! ولتدقيق صلة اللامذهبية باللادينية موضع آخر!

وأما إن كان مراده بالأئمة الشذاذ من أصحاب العقول المريضة والدعاوى العريضة فقد أوسعهم العلماء البارعون رداً على شذوذهم في الفروع والأصول ولم يَدَعوا مقالاً لقائل! جزاهم الله عن العلم خيراً لكن تلك الردود قليل ما طبع منها وقد يتعاقب طبعها بتوفيق الله تعالى! فإن كان يجد في كلامي ما يمس بهؤلاء المرضى في عقولهم فهذا أدنى ما يحتم على التحذير الواجب.

وأما قولك: (وقد بلغ به الأمر أن أقنع صـــديقنا الفاضــــل[١] فأنـــا مستعد لأعلن على رؤوس الأشهاد انضمامي إلى رأي الكـــوثري في هـــذه

---

(١) الذي قلته لهذا «الرجل الطيب» على مسمع من ابن أخت خالته وعلى مشهد ممن هو خزيمة هذا الأمر عندي وعنده [هو أن في الخزانة الظاهرية «كتاباً مخطوطاً» من تأليف ابن تيمية يقول فيه بالتجسيم وكذلك في كتابه «بيان موافقة المعقول لصحيح المنقول» فقال هو: اكتب لي بذلك من دمشق ولن تر أقرب مني إذعاناً للحق فقلت بل أنقله لكم بالتصوير الشمسي] ولم نذكر أستاذنا الكوثري ولا قلت أنا غير ذلك ولا فاه هو بغير ما تقدم.

وأنا لا أقول: وكيف أسكت لو استجرأ فقال لي «وأما إن عجزتم .... خدعت ..... فرية شـــعوبي عـــدو لسلفنا معتد على علمائنا يقول بقاعدة الغاية تبرر الواسطة» ولا أمصعه فهو من قبل ومن بعد حيوان ينطق.

ولا أقول أيضاً: وهل أزهد بعلم أصول الدين إلى حد أن أطيل في مناقشة مثله فأكون أحد اللذين ضـــحك عليهم الجاحظ حيث يقول: «أنا أستظرف أمرين استظرافاً شديداً أحدهما استماع حديث الأعراب والآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً فإن هذين الأمرين يثيران من غريب الفكاهة ما يضحك كل شكلان وإن تشدد وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب».

ولكنني أقول: بأنه رقي على الباطل على أنه احتاط للتخلص من فريته هذه فوضع نقطة في بعض النسخ قبل قوله وأما (وأما إن عجزتم....) وانتزعها من الباقي أو هو من عمل مطبعته سامحه الله.

وإذا كان يسوغ في معجم صداقته هذا الافتراء فإنه غير جائز في صداقة المؤمنين! وأنا أبرأ إلى الله من صداقة من كان هذا لهم مظهراً ممن اتخذوا دينهم متجراً.

ولا أقول كذلك: وإني لأرجو أن تكون هذه أول مرة أسمح فيها للقلم بمناقشة صحفي مستطيل حساباً يسيراً متوسلاً أن يعود مستطيلاً بلا برهان فيومئذ يأخذ الواجب علينا شأناً غير شأنه الآن! وليس لنا معه من بعـــد غير هذا محتسبين الأجر عند خالقه في انتياشه من هُوَّته وإيقاظه من صرعته. بل أقول.... (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون)...

وبعـــض الحلـــم عنـــد الجهـــــــــل للذلـــــة إذعـــــان

حسام الدين القدسي

المسألة). فإعلانكم بانضمامكم إلى مذهب أهل السنة – لا إلى رأيي – إذا ثبت أن الشيخ الحَرَّاني يقول بمعنى التجسيم فما يسرني جداً وأسجل هـذه الكلمـة منكم على حسابكم وأنت ممن أحبّ أن أراه في جانب أهل السنة ويجب هـذا الانضمام ما قبله ولكن مما يُؤيِّسُني أنكم رأيتم فيما علقناه مـا كـان يقـرره الشرائحي وغير الشرائحي من أمر فظيع سبق ما يقوله الأستاذ أبو منصـور في مثل ذلك كما رأيتم سابقاً في (دفع شبه التشبيه).

ما نقلناه عن شرح المشكاة (.... قال جمع من السـلف والخلـف: أن معتقد الجهة كافر كما صرح به العراقي، وقال: إنه قول أبي حنيفـة ومالـك والشافعي والأشعري والباقلاني) وهذا الشارح يلقبه دعاة نحلتكم إذا استشهدوا بشيء منه قوله بناصر السنة وهو كذلك!!

ومع فظاعة ما كان يقرره الشرائحي ما جريت على إنكار ما نسبته إليه بل سلكت طريق أن ترميني بكل سوء مما يرتد إلى الرامي فقلت في نفسي لعـل صاحبنا خلو من علم التوحيد مع أن هذا البحث يحتاج إلى شيء فوق (الجواهر الكلامية) وقد لا يفهم ما يراه في هذا الموضوع فالكلام معه يكون ضائعاً وإلا فهو يستغني عن تطلب خط الحراني بمـا في منهاجـه ومعقولـه وسـبعينيته وتسعينيته!! وشرحه للأصفهانية وغيرها مما طبعه مريدوه!!

وليسوا بمظنة أن يدسوا فيها شيئاً لم يقله بل قد يتصرفون فيهـا بمـا يخفف لهجته لتلقى قبولاً من المخدوعين ومع ذلك فيها جميع ما سـبق علـى

ألوانٍ من الخداع! بل لا يقدر أن يتكلم قدر ورقة أو ورقتين في أي كتاب من كتبه دون أن يدس فيها شيئاً من بدعه! وكلُّ مَيْزَتِه كونه سلس الكلام لا يستعصي عليه طريق في التمويه! حتى لم أر أجرأ منه على البدع وأكثر منه تناقضاً ممن يذكر بعلم!

ويعجب الإنسان من تصرفه في أقوال العلماء وروايته لها بألفاظ تدل على معان تبعد كل البعد عن معاني ألفاظهم! وهذا مما جربته عليه في مواضع لا تعد! وأما في تراجم الرجال فيجعل الكبير صغيراً والصغير كبيراً إذا أعوزه البحث إلى ذلك! وفي نسبة الرجال إلى الآراء والمذاهب يتناقض كلامه في مقام ومقام إلى نحو ذلك! **ومن يقع منه أمثال هذه التصرفات إما أن يكون في عقله شيء ربما يكون القلم مرفوعاً عنه وقد تكون رغبته عن النكاح طول عمره مع سلامة البنية والصحة التامة وقوة الجسم أورثت هذه الحالة الشاذة في عقله! ومن يكون مصاباً في أعصابه يظهر أثره فيما هو منهمك فيه!** ولا يكون جنون العلماء كجنون السفهاء وعلى هذا الاحتمال أشار من قال: (علمه أكثر من عقله)!!

وإما أن يكون رجلاً سيئاً فاتناً يجب هجره! وعلى الحالتين لا يكون في موقع القدوة وآراؤه مما لا يتحمل النقد العلمي! وفي أوائل عمره كانت عنايته بالسنة ومسند أحمد كبيراً حتى كان بحيث يحق أن يعد مستحضراً لمتون أحاديثها ثم تشاغل بعلوم أخر ومذاهب شتى بالمطالعة من غير تدرُّس عن أهلها فحمل ألفاظ العلوم على غير

معانيها وارتسم في ذهنه صور معكوسة من معارف تلك الفنون لا استبقى حفظه السابق ولا أجدى شغله اللاحق! حتى أصبح مثالاً للفوضى العلمية والخلل في التعقل!

وهذا ما أحكيه لك متجرداً من جميع العواطف ومضى عليَّ زمن كِدْتُ أنخدع ببعض كتبه، وما ألّفه في أواخر عمره متوغل في الفساد أكثر مما كتبه في أوائل عمره ويتأسف الإنسان على هذه المواهب الضائعة! وسيصدر قريباً إن شاء الله تعالى ما يشفي غلتك في هذا الباب!

وغالب كتبه ضار لمن يطالع الكتب كمطالعة الجرائد، ولمن لم يدرس العلوم كما يدرسها أهل العلم! ومن يروج عليه كتبه لابد وأن يكون فيما تلقى من العلوم مقصراً سيء الفهم أو متساهلاً في المطالعة وإلا فمثل الشيخ الحرَّاني لا يمكن أن يوزن في كِفّةٍ وأئمة علوم شتى ومذاهب عديدة مَحَّصَها تعاقب الأحقاب في كِفّةٍ أخرى بجملتهم فيزنهم هذا، هذا ما لا يقوله عاقل!

إذن هو المخطئ في شواذه التي توهم أنه استدركها عليهم ومن تقلده خاطئ! وأما الجماعات أصحاب العلوم والمذاهب فهم المصيبون فيما اتفقوا ولا يعدو الحق أقوالهم فيما اختلفوا، ومن ضغط دماغه بشتى العلوم من غير تفهم عن أهلها، وتخيل أنه يتمكن بذلك من الاستدراك على جميع أئمة تلك العلوم المتنوعة وقد محصها تعاقب البحوث على طول التاريخ بأيدي جماعات أهل الإخصاء في كل منها فقد حاول محالاً! وأول ما يجني مثله على حجيرات دماغه يكون ما يرتسم في مراياها صوراً مشوهة من تلك الفنون بحيث تضحك منها

الحقائق كما هو الحال فيما ينعكس في المرايا المحدَّبة والمقعرة ومثله يكون أقرب إلى الجنوب من الفنون!

نعم من وقف حياته على علم خاص وجرى على طريق أهل العلم يمكن أن ينكشف له من الأسرار ما يعد به مستدركاً على أئمة هذا العلم إذا رافقه التوفيق الإلهي!

وأما قولك: (وأما إن عجزتم عن إثبات ذلك...) فيجب أن تعلم أنت وطائفتك أنكم لستم أمام من يجازف فيما يعزو ولا يتروى في نسبة الآراء إلى الرجال أو يأتفك الزور في الدعاية السوءى كما هو شأن طائفتك النوابت الحشوية! بل أمام من يدرس حالة الرجل ومؤلفاته! وما انتابه من الأطوار طول حياته! حتى يتمحَّص له ما اختلقه خصومه في حقه من المثالب إن كان هناك اختلاق! ويستبين عنده ما غالى فيه أعوانه من المناقب بغربلتها بغربال النقد الصحيح ويتميز لديه من أقواله ما هو من قبيل هفوة لا يتقصدها قائلها أو رأي له ماض دب عليه ودرج! فهناك فقط أعزو الرأي إلى الرجل فلا يتمكن مردة مريديه من إبطال ما نسبت إليه ولو أجْلَبوا بخيلهم ورَجِلهم! فإن كان لم يكف ما طبع إلى الآن من مؤلفات هذا الشيخ الحراني في معرفة نحلته فليقم أحدكم بطبع كتابه في نقض (تأسيس التقديس للرازي) من غير حذف شيء منه ولا تصرف فيه – **كعادة طائفتكم فيما يطبعون من كتب الدعاية جرياً على**

قاعدة المراحل في التضليل – وعلى طبق ما هو في ضمن مجموعة «الكواكب الدراري الحنبلية» وهي مجموعة وحيدة في العالم بعيدة عن أن تمسها يد التزوير من قبل خصوم الحشوية إن كان يوجد من يظن هم مثل ذلك مقايسة بطائفتكم كما تعلمون – بالنظر إلى نشأتكم بين جدران الظاهرية – فإذا ذاك لا يبقى على وجه البسيطة من لا يطلع على جلية أمر هذا الرجل من العلماء فإن كل الصيد في جوف الفرا!!

رحم الله الإمام الرازي حيث قضى على حشوية بلاد المشرق ثم عرَّج بكتابه إلى البحر المتوسط فخنق فلولهم وجافلتهم بحججه الباهرة! وهو من لطف النظر بحيث يضطر من يناظره أن يجهر بما يكنه صدره؛ فيكفي شره جماعة المسلمين!

ولهذا قلما ترى بين أئمة المتكلمين من أهل السنة بعد الأشعري من هو أبغض من الرازي إلى الحشوية حتى يقول حرَّانيِّكم هذا في حق «محصل الرازي»:

محصل في أصول الدين حاصله ... من بعد تحصيله جهل بلا دين

أصل الضلالة والشك المريب فما ... فيه فأكثره وحي الشياطين

أما ترى أن صاحبكم هذا يرى اعتقاد أهل السنة جهلاً بلا دين ومن وحي الشياطين! فيا ترى هل أُعَدُّ معتدياً على علمائكم وأئمتكم إذا قلت في معارضته:

محصـــل في أصـــول الـــدين حصَّـــله		من اهتدى فغـــدا محصـــن الـــدين

أسُّ الهدايـــة والحـــق الصـــراح فمـــن		يرتاب فيـــه قفـــا إثـــر الشـــياطين

ولا قيِّم بترويج كاسد سلعته ممن يعرفه حق معرفته غير ابن قيم المدرسة الجوزية بدمشق وهو لم يكن غير شيخه في المعنى بل هما قمـــاش واحـــد ذاك ظهارته وهذا بطانته! ذاك يسوِّد وهذا يبيِّض! عمله جله تزويق بضائع شـــيخه بحيث تروج! يقلده في كل شيء وليس له رأي خاص قطعاً على سعته في العلم! ومن ثمة ترى أصحاب الذيول لا يترجمونه في عداد الحفاظ! ويترجمه الذهبي في «المعجم المختص» بما فيه عبرة لمن اعتبر! وهو آخر من ترجمه ابـــن رجـــب في «ذيل طبقات الحنابلة» لأنه كان تلقَّى منه نونيته عام وفاته وهو صغير وكـــان مفتتناً به إذ ذاك وهذا الذيل من أوائل ما أَلَّفَهُ ابن رجب ثم انسحب من بـــين التيميين وهجرهم فاستقامت طريقته ما شاء الله أن تستقيم! حتى ألَّف (شـــرح مشكل الأحاديث الواردة في أن الطلقات الثلاث واحدة) وهو من أَمْتَنِ ما أُلِّفَ في الرد على ابن تيمية في هذه المسألة! حتى كان الذين هجرهم يصفونه بالظالم المعتدي وكان هو يقول: (حقاً كان التقيُّ السبكي محقاً)!!

ومع ذلك كله لا ننكر أن «إعلام الموقعين» لابن القيم هذا نافع جـــداً للمشتغلين بالفقه[1] لأنهم يجدون فيه ما يختبرون به مقـــدار تنبـــه الطالـــب إلى

(١) ونحن نرى خلاف ذلك! ولا نرى فيه نفعاً ولا إليه حاجة! وأنا واثق من أنه أخذه من كتاب سابق!

مشاغبات تورد على الأقيسة الصحيحة والحجج مما لا تقوم له قائمة إن كان الناظر فيها يعلم مدارك الأئمة في الفقه وأصوله على وجهها من ثمة يوزع هذا الكتاب على المنتسبين إلى مدرسة القضاء الشرعي في البلاد لِتَنْمِيَة مَلَكاتهم الفقهية على التنبه إلى وجوه بطلان المشاغبات في المسائل لا ليسايروه فتنقلب عليهم طرائق الفقه رأساً على عقب!

وأما قولك: (فيكفي أن تعلم أنك قد خدعت وأن هذه الفرية فرية شعوبي عدو لسلفنا معتد على علمائنا) فما يستعصي على فهم وجه الاتصال بين شطري شرطيتك، ولعل ذلك غير مشعور به إلا في ذهن الشارط الشاطر كما هو الحال في شرطيات جماعتك!

ما هي الفرية؟ ومن هو الشعوبي؟ نراه يجري كثيراً على لسانك منحدراً من جنانك وقد خالط اللحم والدم! أهذا مما تعلمته من كتاب إمامك ابن قتيبة (كتاب التسوية بين العرب والعجم) أو مما تلقفته من الجاحظ فلعله أحد أئمتك في مسألة الشعوبية وإن كان عدوك اللدود في التشبيه أو ساقك إلى هذه النغمة مجرد الأشعبية!

أراك ولوجاً فيما لا يعنيك وتعنيه لجوجاً فيما تعانيه ماضياً في غلوائك! لابساً لبوس دعاة السوء في التلبيس بأهوائك تسعى لتفضح نفسك بيديك وتتعرض لهتك برقعيك إن كان يوجد في بخراء الأرض وفيحائها وأرض مصر وسمائها من لا يعرف وجهتيك! أفأنت السلفي الصالح، هذا غيب عني، وإنما

ذلك إلى من تصطف معهم في صلاقم وتشاركهم في حياتك أم أنت التاجر السلفي تعامل زبائنك بالسلف؟! وهذا مما لا يهمني أيضاً لأن كل تاجر يعامل حسب ماليته وحسبما يراه من مصلحته بالسلف وبغير السلف، وليس للآخرين شأن في ذلك!

وإنما الذي يهمني ويهم كل مسلم غيور ما تذيعه بين حين وآخر وأنت في زي وزي ومظهر ومظهر لا يهمك إلا إشباع أشعبيتك! تجعل العروبة أداة مرة والشعوبية أخرى! مهنتك الدفاع عن طاغية الإلحاد تجعله بطل الشرق والإسلام طوراً ثم تجعل ديدنك الواقعية فيه بكل وسيلة تارة أخرى! وفي الحالتين هو هو وأنت أنت لا هو تَبَدَّل ولا أنت تَغَيَّرت! أليس يشهد لك أو عليك بذلك الإهرام وغير الإهرام؟!

تصبح مرة أزهرياً قُحَّاً وأخرى كما نراك اليوم وفي تلك الأزياء كلها الألفاظ شتى والمعنى واحد! جَرَّبت أنت في أطوارك كلها أن أربح تجارة هو ما استقرت الآن عليه ولكن يجب أن تعلم أن أخسر تجارة هو هذا الأخير! لأن الله يغار على دينه ويأبى أن لا يهتك ستر مَنْ هذا شأنه!

فارجع إلى رشدك واقنع بما رزقك الله من طباعتك بحِلّه كفى ما لقي الإسلام من أصدقائه في المظاهر وكفى الله شر مَنْ يعاديه وهو يجاهر!

مَنْ أنتم؟ ومَنْ سلفكم؟ إن كنت تريد دعاة السوء والسلفية الزائفة فأنت تعلم وكل الناس يعلمون أن كتب سلفكم في مراحل الدعاية في بلاد السنة إنما كانت أول محطة تحط فيها قبل سنوات قلائل هي المطبعة الفرجية

للشيخ فرج الله الكردي ذاك السلفي المشهور فهو يقوم بطبعها وإذاعتها ويـأبى بقية الطابعين بمصر وغير مصر أن يقوموا بمثل هذا العمل، وما كـان دعـاتكم يجترؤن أن يقوموا بدعايتهم إلا تحت مستعار الكنى ومختلـق الألقـاب أهـذه سلفيتكم المتحجبة ثلاثة عشر قرناً؟! ولماذا كانت تتورى بالحجاب يوم كـان للإسلام قوة وشوكة وحَوْل وطَول؟! وثَمَّ أخذت قوافل السـلف تتوغـل في القاهرة وغير القاهرة، وشرعوا يحطون رحالهم حيث شاءوا، ويستأنفوا العمـل متزودين بكعكات فاسدة ما تزيدهم إلا علة إلى عللهم حتى اسـتقر قـرارهم الحالي في الطبع والإنشاء على ما تشاء فأصبحت السنة بدعة والبدعة سنة، والله من ورائهم محيط!

فما عليَّ إذا لم أتابع مثل هذه السلفية سلفيتكم الحاضرة، وإن كانـت تريد بالسلف العروبة وبني يعرب الأكارم فمن أي فخذ من ربيعـة أو مضـر نسب هذا الشيخ الحرَّاني؟ ومن أين صلتك به أو صلته بك في انحدار الدم؟ وإلى أي شعب ينتهي نسب جده السابع فإذا أخذت أيها الكاتب الإسلامي تحلـل الدماء في معامل الكيمياء بقيت في شكل مريب فيمن هو الدخيل وفيمن هـو الصليب والله يتولى هدايتكم!

وإن كنت تريد السلف الصالح فالله يعلم مَنْ يصادقهم ويجل مقـدارهم ومن يجعلهم ستاراً لبدَعه من المُرْجفين المعتدين.

وأما قولك: (يقول بقاعدة «الغاية تبرر الوسيلة») فلا ينطبق إلا على من كان شرقي القول غربي الفعل جامعاً بين أردأ ما في الغرب وأسوأ ما في الشرق مثلك! ومن الأدلة على ذلك مقالك هذا على تعليقاتنا التي ليست فيها كلمة تدعم بحجتها ونحن لك نحكم الخاطر في شيء منها مثلكم والقاعدة عندنا «أن النتيجة تابعة لأخس مقدماتها» فها أنت ترى نتيجة مقدماتك!

وأما قولك: (ومن أمثلة بغضه للسلف أنه لما أراد أن يكتب ترجمة الإمام ابن قتيبة في ثلاثة سطور لم يجد ما يقوله فيه غير هذه الكلمات: «هو صاحب التصانيف أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة أحد أئمة الأدب إخباري قليل الرواية قد يعتمد في التشبيه على ما يرويه من كتب أهل الكتاب يُتَّهم بالنصب كذبه الحاكم ووثقه غيره....» فانظر إلى هذه الصورة الكاذبة التي يصور بها إماماً عظيماً....).

فشنشنة قديمة منك غير فقرتها الأولى كنا تغاضينا عنها يوم كتبتها في الزهراء قبل سنوات تعليقاً منك على كلمتنا هذه في «دفع شبه التشبيه»[1]

---

(١) كتاب لا يوازيه كتاب في رد تمسكات مشبهة الحنابلة بآيات وأحاديث في الصفات، حملوها على غير معانيها فوقعوا في التجسيم فأقام ابن الذى الجوزي النكير عليهم، وبرأ الإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – من وصمة التشبيه! فاستاء جهلة أهل مذهبه من هذا الكتاب فرموه بالتجهم كما كانوا فعلوا مثل ذلك مع الإمام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي! وللمشبهة حول هذا الكتاب مشاغبات معروفة! ويذكره سبط ابن الجوزي في المرآة في ترجمة جده عند ذكر مؤلفاته باسم «دفع شبهة التشبيه بأكف التنزيه» وكذا أبو بكر الصامت يذكره

للحافظ أبي الفرج بن الجوزي الحنبلي اعتماداً منا على أن ظهور قولي في ابن قتيبة أعدل ما قيل أو يقال فيه بالنظر إلى أقوال مَنْ ترجمه من العلماء! مما لا يحوج إلى التطلب من بطون الكتب النادرة المخطوطة، واكتفاء بما يظهر للمطالع من مراجعة كتبه المطبوعة! لكن أبى الله أن لا يفضح المتخرِّص حتى طرقت هذا الباب من جديد! فلعلك كنت ظننت أن التغاضي كان عن عجز منا ولم تتفطن إلى أنه كان من مرور الكرام باللغو من الكلام! كما عاملناك في أشياء أخر كذلك وأخذت توغل في الوقيعة ولم تعلم أنها جهد العاجز!

فهاك ما يرجعك إلى صوابك من نصوص أهل العلم في ابن قتيبة ومما في كتبه ليعلم الملأ مَنْ صَوَّرَه بصورة كاذبة: «قال الحاكم أجمعت أُمَّةٌ على أن القتبي كذّاب» هذا لفظ الحاكم ووقع عند الذهبي بلفظ (الأمة) فتعقب هذا الكلام بقوله: هذه مجازفة قبيحة وكلام مَنْ لم يخف الله!

فَتَسَرَّع الذهبي في وصم الحاكم بأنه لا يخاف الله فجازف في الكلام وإنما يريد أن كذّبه جماعة لا أن تكذيب ابن قتيبة من مواطن الإجماع!

بهذا الاسم وينقل منه أشياء في كتاب «الصفات» له! وذكره ابن رجب أيضاً في ذيله بين مؤلفات ابن الجوزي! وينقل منه اليافعي من غير ذكر اسم الكتاب أشياء في «مرهم العلل» وصاحب جلاء العينين ينقل منه قدر ورقتين من غير ذكر الاسم أيضاً ومع هذا كله تشكك الأستاذ السيد رشيد رضا في نسبته إلى ابن الجوزي! وقال: لم أره في شيء من تراجمه في الكتب مع أنه أوصى بالكتاب لأحد من ناقشه ممن انخدع بتلبيسات الحشوية! فوجب التنويه بذلك!

وقال الدارقطني: «ابن قتيبة يميل إلى التشبيه منحرف عن العترة وكلامه يدل عليه»!!

وقال البيهقي: «كان يرى رأي الكَرَّامية».

قال أبو نصر الوائلي الحافظ: قال محمد بن عبد الله الحافظ: «كان ابن قتيبة يتعاطى التقدم في علوم ولم يرضه أهل علم منها، وإنما الإمام المقبول عند الكل أبو عبيد».

ولابن قتيبة اعتراضات على غريب الحديث فانتصر محمد بن نصر المروزي لأبي عبيد، ورد على ابن قتيبة، وما أدراك من محمد بن نصر المروزي سل ذلك ابن حزم!

وقال المسعودي: «ابن قتيبة استمد في كتبه من أبي حنيفة الدِّيْنَوَري».

وقال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: «ابن قتيبة هجام ولوج فيما لا يحسنه».

قال الزين العراقي: «كان ابن قتيبة كثير الغلط».

قال الأزهري في مقدمة «تهذيب اللغة»: «ابن قتيبة كثير الحدس والقول بالظن فيما لا يحسنه ولا يعرفه، ورأيت أبا بكر ابن الأنباري ينسبه إلى الغباوة وقلة المعرفة ويُزري به».

قال ابن الجوزي: «ذهب ابن قتيبة إلى مذهب قبيح فقال: لله صورة لا كالصور فخلق آدم عليها وهذا تخليط وتهافت».

ترجمة الذهبي في «الميزان» لا في «تذكرة الحفاظ»، وكذا ابن حجر ذَكَرَه في «اللسان» دون «تهذيب التهذيب»!! وهذه النقول كلها في الكتب المطبوعة سهل عليك تناولها فهل ترى هؤلاء من أعداء السلف أو أنهم من الزنادقة في نظرك مع أنهم أربوا علينا بكثير؟!

ولعله ما فاتك ما يقوله الحافظ أبو بكر ابن العربي في حقه في كتابه «العواصم عن القواصم» فنستغني عن إيراده هنا بالنظر إلى أنك قرظت هذا الكتاب حديثاً في الزهراء إلا أني لا آمن عليك أن تعود وتطعن فيه جهدك بمجرد الإيعاز من شركائك لشدة وطأته على الحشوية[1].

---

(١) ومن جملة ما يقوله ابن العربي في كتابه عند ذكر مشبهة الحنابلة: [..... وقالوا أنه يتكلم بحرف وصوت وعزوه إلى أحمد بن حنبل! وتعدى بهم الباطل إلى أن يقولوا إن الحروف قديمة وأنه ذو يد وأصابع وساعد وذراع وخاصرة وساق ورِجْل يطأ بها حيث شاء؛ وأنه يضحك ويمشي ويهرول! أخبرني من أثق به من مشايخي أن أبا يعلي محمد بن الحسين الفراء رئيس الحنابلة ببغداد كان يقول: إذا ذكر الله تعالى وما ورد من هذه الظاهر في صفاته يقول: (ألزموني ما شئتم فإني ألتزمه إلا اللحية والعورة) فانتهى بهم القول إلى أن يقولوا: إن أراد أحدكم أن يعلم الله فلينظر إلى نفسه بعينه! ألا إن الله منزه عن الآفات لا أول له دائم لا يفنى لقول النبي – صلى الله عليه وسلّم – «إن الله خلق آدم على صورته»! وفي رواية: «على صورة الرحمن» وهي صحيحة فلله الوجه بعينه لا ننفيه ولا نتأوله إلى محالات لا يرضى بها ذو نُهى! وكان رأس هذه الطائفة بالشام أبو الفرج الحنبلي (عبد الواحد الشيرازي) بدمشق، وابن الرميلي المحدث (مكي بن عبد السلام) ببيت المقدس، والقطرواني بنواحي نابلس، والفاخوري بديار مصر، ولحقتُ بهم ببغداد أبا الحسين ابن أبي يعلى الفرّاء، وكل منهم ذو أتباع من العوام جماً غفيراً عصبة عصيه عن الحق وعصبيه على الخلق! ولو كانت لهم أفهام ورزقوا معرفةً بدين الإسلام لكان لهم من أنفسهم وازع لظهور التهافت على مقالتهم وعموم البطلان بكلماتهم! ولكن القدامة استولت عليهم فليس لهم قلوب يعقلون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون

جزى الله مؤلفه ومن قام بطبعه عن العلم خيراً فإن الأمة كانت في حاجة إليه، ونسخه في الشرق كانت نادرة وهو كتاب يُعَرِّف الرقعاء من الدعاة مقاديرهم في العلم والفهم ويوقفهم عند حدودهم.

وأما كون ابن قتيبة قد يعول في التشبيه على ما ينقله من كتب أهل الكتاب فدونك من مؤلفاته «كتاب مختلف الحديث» من مطبوعات فرج الله الكردي ففي الصفحة (٢٦٨) منه:

«... قرأت في الإنجيل الصحيح ......» إلى آخر ما ينقله!!

وفي الصفحة (٢٧٩): «.... قرأت في التوراة ....» إلى آخر ما ينقله!!

مع أن هذا وذاك من أظهر الأدلة على التحريف فيهما كما في أوائل «الفصل» لابن حزم! ومن أبشع ما يصدر من قلم عالم في التشبيه إلا للرد عليه ويطول عليَّ لو أشرت إلى جميع ما نقل في هذا الكتاب عن كتب أهل الكتاب فضلاً عن بقية كتبه!

بها أولئك كالأنعام بل هم أضل! ولقد أخبرني غير واحد عن أبي حامد الأسفراييني أنه خرج يوماً على أصحابه مسروراً فسألوه فقال: ناظرت اليوم عامياً فظهرت عليه! فقيل له: أنت تظهر على الأئمة فكيف تفرح بالظهور على العوام؟! فقال: العالم يرده علمه وعقله ودينه والعامي لا يرده فهم ولا يردعه دين فغلبته نهزة ونادرة. قال القاضي أبو بكر رضي الله عنه: ما لقيت طائفة إلا وكانت لي معهم وقفة في مقالاتهم عصمني الله بالنظر بتوفيقه منها لا الباطنية والمشبهة فإنها زُعْنُفَة تحققت أنه ليس وراءها معرفة فَقَذَفْتُ نفسي كلامها من أول مرة] اهـ وهو يمحص الكلام في المشبهة فليراجع الجزء الثاني منه (ص١٧–٤٣).

وسَهُلِ على مُشَبِّهَةِ الرواة التلقح من أي ينبوع شاءوا لكثرة رحلاتهم ولم أكن في صدد رسم خارطة لأهل الأديان والنِّحَل في البلاد وله محل آخر!!

وتفسيره (الاستواء) بالاستقرار تشبيه قُحٌّ لم يَرِدْ في كتاب ولا سنة صحيحة حتى يتمكن من أن يقول: «إني أفوض معناهن ولا أُفَسِّره فأبقى في عداد السلف» لأن هذا التفسير إنما اختلقه الكلبي ومقاتل بن سليمان من أئمة التجسيم وهما مستغنيان عن التعريف بهما!

وقد بسطت في غير هذا المحل قيمة إطراء ابن تيمية في «تفسير سورة الإخلاص» لابن قتيبة ودافعه إلى ذلك! بحيث يقضي على جميع كلامه هناك عند من أنصف! وهما في التعويل على كتب أهل الكتاب على منازل متقاربة! فإذا راجعت ما ينقله الشيخ طاهر في توجيه النظر عن ابن تيمية في حق كتب أهل الكتاب ثم قارنت ذلك بما نشرته في الفتح من مقالات الأستاذ العبادي ساقتك هذه المقارنة على التفكير في مرمى الشيخ الحراني بأمثال تلك الأقوال وكل ذلك سهل التناول!

ولم أحلك إلى مخطوطات لا تتخلى للفحص عنها، خلاصة التحقيق في ابن قتيبة أنه ما كان كاذباً فيما يرويه أو ينقله إلا إذا كان المنقول عنه كاذباً وقد يلصق به، وفيما يقوله بالظنون والحدس أكاذيب فهو جامع بين الصدق والكذب باعتبارين! **وأما النَّصْب فلاصق به وإن كان يعير ناصبية الرواة في** كتابه «الاختلاف في اللفظ» إذا تحقق نسبة كتاب «الإمامة والسياسة» إليه

وهو قدير بالنسبة إليه! ولا مفر له من التشبيه وإن كان تشبيهه دون تشبيه أناس آخرين رد هو عليهم كما يقال كفر دون كفر.

وأما الوقيعة فلا نستجيزها في حق أحد من خلق الله بما لم يأذن به والجرح على طريقة شيء غير الوقيعة حتى إن السكوت عنه والاقتصار على ما قيل في الرجل من الإطراء أو التعديل خيانة في العلم يأباها العلماء!

ومن جملة حيل هذه الطائفة في نشر بدعتهم أن يقولوا: مَنْ تكلم في الراوي الفلاني أو الرواية الفلانية فهو متهم بكذا على ألسنة أناس لم يقولوا ذلك من المعروفين ترويجاً لهذه الرواية الباطلة وما دخل في روايات هذا الراوي من الأباطيل فليتنبه إلى ذلك!

وأما قولك في آخر مقالك: (إن ما يقوله الكوثري في علمائنا لو قال أقل منه طه حسين وسلامة موسى لأقمنا القيامة عليهما، والمهمة التي انتدب لها الكماليون لا حاجة بها إلى من يكملها في بلاد لا تزال تعرف للسلف أقدارهم وفضلهم) فآخر طراز في التخرُّص أراك فيه تبسط فروة الكرامة على متن كرة الهواء وتنادي من علاها كل غاد ورائح من الجزيرة الخضراء إلى آخر عبّادان ترسم لهم الخطط وتملي عليهم الحكم العالية! وأنت الحاكم بما تشاء ولكن لا تلبث أن تفيء فتجد نفسك بين القرافتين الصغرى والكبرى! ماذا جنى

هذا الزنديق! (في نظر طائفتك) هل تلا «السبع الطوال» أم انتقص أبا بكر الصناديقي أم عمر القواريري أم ماذا عمل أيها التقي الورع؟!

تركت الصلاة والصيام والتسبيح والتقديس واشتغلت بلعنه لعل هذا أفضل عملك ولعل هذا المراق! (في نظرك) أثبت «الجزء الذي لا يتجزأ»! أو شيئاً من هذا القبيل فاستحق ما تقول فيه وزيادة!

وعند العلماء لأمثالك فكاهات! إن كان عند الإمامية عدة «أئمة معصومين» فعندكم من قام في مقام العصمة بعد الأنبياء بل بعد الأئمة عدد لا يحصيه إلا خالقهم **ويكفي الرجل ليرقى مقام العصمة عندكم أن يدخل فيما لا يحسنه من مسائل الاعتقاد ومسائل العلوم أو أن يكون مبعث فتن خرقاء بين المسلمين في الأجيال السابقة أن يغرس شجرته الخبيثة ونحلته السخيفة في خالص دماء المسلمين يسقيها بدمائهم ويعيش بها** طول دوام نحلته – هل سبق لهذا مثيل لنِحْلَة من النِّحَل في تاريخ الفرق الإسلامية؟! وفي ذلك عبرة لمن اعتبر – **أو أن يصبح جامعاً لها كلها لعدم التعاند في الجمع بينها مع أن رد خطأ المخطئ سُنَّة متوارثة بين العلماء على ممر الدهر، والنقد العلمي حر مفتوح الباب على مصراعيه في كل عصر.** ويا ليت بلاد الإسلام لا يوجد فيها من يتطوع في الإلحاد أو من يكون مبتكراً في الخلاعة والسمسرة وما هم تحت سيطرة طاغية يرغمهم أو يحضهم على شيء من ذلك أو لا يرى فيها مَنْ

ينحازون إلى الشذاذ، مُنْفَضّين من حول السلف الصالح والأئمة المتبوعين! ولا تجري في العلم والدين والعمل والأخلاق والشؤون كلها هذه الفوضى المشهودة فيقوى أملنا في مستقبل الإسلام!

وجملة القول أنك أيها الكاتبِ صاحب الضمير الطاهر! الآن علمت صاحبك في أي صف هو؟! فقم ولنستنزل صواعق اللعنات على رأس من سبق منه أدنى ركون إلى طاغية الإلحاد فضلاً عن أن يكون من دعاته أو مكملي خطته في أنهر الصحف وفي المجالس والمحافل استمرَّ على ذلك أو لم يستمر هذا آخر ما أقول لك!

وأرجو من القارئ الكريم أن يعذرني في لهجة هذا الخطاب لأني أمام مكابر مُتَقَوِّل مُسَتِّر متطاول — كما يظهر من مقارنة تعليقاتنا بمقاله وهما مثبتان في الآخر — لا يفهم غير هذه اللغة فاضطررت إلى مقابلته على لحنه ولهجته (بالجملة) غيرة للحق وانتصاراً له من المبطل فسيكون هذا آخر ما أكتبه بهذه الطريقة إلا عند الضرورة القصوى كما هو أوله! وللضرورة أحكام وأمضي فيما أراه صواباً غير مُكْتَرِثٍ بتقوّلات الأقلام المأجورة ويكون عن لسانه المثل السائر «أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل» فمن أبدى اعتراضاً بطريق أهل العلم على شيء مما قلنا أو نقوله فعلى الرحب والسعة ولا يتأخر الجواب عنه على مبلغ علمنا، وأما من سلك طريقة الإقذاع والوقيعة فيكفيه أن يعلم أنه جهد العاجز وحجة العجائز! والله على ما نقول وكيل وهو حسبنا وكفى، ولا حول ولا

قوة إلا بالله، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الأطهار، وصحابته القادة الأخيار، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القرار، تحريراً في يوم الخميس ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٤٨ بصالحية دمشق - حرسها الله تعالى.

﴿تعليقنا على قول ابن فهد في ذيول تذكرة الحفاظ ص٢٦١ في ترجمة الشرائحي «نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب...»﴾

التي أثارت ثائرة المحب

تراه نشأ عامياً لا يكتب ولا يقرأ كالمسند الشيخ يوسف الغسولي الذي يقول عنه ابن العماد كان أمياً لا يكتب مع أنه من مشايخ الذهبي وكالمسند إسماعيل ابن أبي عبد الله العسقلاني الراوي عن حنبل الرصافي وابن طبرزد وعنه يقال أيضاً: إنه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، ولأمثالهم كثرة بين الرواة على اختلاف القرون، بل غالبهم بمجرَّد تعلمهم حروف التهجي في الكتاتيب ينصرفون إلى الرواية وإلى ملازمة مجالس السماع من صغرهم قبل تحصيل مبادئ العلوم الضرورية، فيبقون من أبعد خلق الله عن النظر والتَّبصُّر.

ومن ثمة كان صاحب الترجمة - رحمه الله - كبير التساهل في تسميع المترددين إليه كل ما بلغه من أجزاء الناس من المُشَبِّهَة لا يتحمَّلها أهل العلم منهم إلا لتسجيل بدعتهم عليهم، ليرد عليهم المتبصرون من العلماء نحلتهم، وفي بعض تلك الأجزاء صريح نسبة القعود والجلوس والمكان والحد والحركة وغيرها إلى ربهم!! وهذا مما تقشعرُّ جلود الذين يخشون الله من نسبته إليه تعالى عما يصفون! وإن كان بين هؤلاء من شهر بالرواية لكن لم يزالوا على عاميتهم لبعدهم عن أهل العلم وعدم ممارستهم النظر، وتعوُّدهم أن يعيشوا أمة وحدهم مغترِّين بكثرة الملازمين لهم لتحمل ما عندهم من الروايات!

ولم يستأصل الإسلام من عقولهم بعدُ شأفة نحلهم التي كانوا عليها قبل الإسلام من يهودية بفلسطين ونصرانية بالشام ووثنية بالبادية وصابئية بحرَّان وواسط عبدة الأجرام العلوية وغيرها من قدماء المشبهة! ظانين أن ما هم عليه هو الاعتقاد الصحيح في الله تعالى!

وقول الجمهور في حقهم مرّ إلا أن الإمام عز الدين بن عبد السلام يميل إلى أن مَنْ هو في عداد العامة منهم بحيث يعلو التنزيه عن مداركه يعذر ويرجى من سعة فضل الله أن يصفح عنه! وأما من كان في عِداد أهل العلم والنظر منهم فليس يعذره أحد من أئمة السنة! وصاحب الترجمة عزَّره وآذاه بالقول القاضي برهان الدين أبو سالم إبراهيم بن محمد بن علي التادلي المالكي الذي يقول عنه ابن خطيب الناصرية: (كان حاكماً ناصراً للشرع مهيباً) لما بلغه أنه أقرأ كتاب «الرد على الجهمية» لعثمان بن سعيد الدارمي و«النقض» له بدمشق! وعزَّر القارئ عليه أيضاً بكلامٍ وهو البرهان إبراهيم بن محمد بن راشد الملكاوي الدمشقي! ثم بالضرب والطواف به والحبس كما في «الضوء اللامع» وغيره!

وهذا الكتاب «كمسائل حرب» مما يتسامع به الحشوية فيما بينهم وفيه غرائب وعجائب لو قام بطبعه بعضهم لظهر لعامة العلماء ما هي السنة التي إليها ينتمون! وينقل منه ابن تيمة أشياء في معقوله! والدارمي هذا وإن كان قام على محمد بن كَرَّام لكن لم يكن ضد تشبيهه وهما فيه سيان بل على مسألة الإيمان، وليس هو صاحب المسند المشهور، وكان اللائق به عدم الولوج في هذه المضايق

التي ليس هو من فرسانها حتى لا تَزِلَّ قَدَمُهُ وليس ينقذه من هذه الورطة ما يكيله لمناظريه من هُجْرِ القَوْل من غير حجة ناهضة سامحه الله!

وترى أيضاً في جملة ما يُسْمِعُه صاحب الترجمة «كتاب إثبات الحد لله عز وجل وأنه قاعد وجالس على عرشه» لأبي محمد محمود بن أبي القاسم ابن بدران الدَّشْتي واصفاً له بالإمام الحافظ أوحد زمانه سيد الحفاظ سيف السنة والمسلمين قامع المبتدعين ناصر الدين إلى غير ذلك من الأوصاف الضخمة الخدَّاعة! وفيه عن الزاغوني وأبي يعلي وابن بَطَّة وغيرهم من مجانين العقلاء نقول سخيفة يضحك منها عقلاء المجانين! وفيه أيضاً الأبيات المعزوة إلى الدارقطني من غير خجل ولا وجل بسند تالف آخرها:

ولا تنكروا أنه قاعد ولا تجحدوا أنه يقعده

والذهبي تصوَّن عن ذكر هذا البيت في كتاب «العلو» مع ذكره بقية الأبيات (رواية عن شيخ وهو ابن سبع سنين بسند فيه شيخ أقر بالوضع ثم تاب وشيخ مغفل يلقن كما ذكرهما كذلك نفسه في «الميزان»)!!

وابن القيم ترك التقية وسرد الأبيات كلها في «بدائع الفوائد» من غير سند، وسندا الذهبي والدشتي متقاربان، والدشتي أيضاً ينقل في آخر كتابه —

قاعداً تحت المثل السائر (رمتني بدائها وانْسَلّتْ) – قـول الرسـتمي[1] بكـل وقاحة:

الأشـعرية ضُـلال زنادقـة إخوان مَنْ عَبَدَ العزى مع الـلات
بـربهم كفـروا جهـراً وقـولهم إذا تدبَّرته مـن أسـوى المقـالات
ينفـون مـا أثبتـوا عـوداً لبـدئهم عقائد القوم من أوهـى المحـالات

وهذا الرستمي كأنه هو الذي يقول فيه الشاعر:

كفراً بعلمك يـا ابـن رسـتم كلـه وبما حفظت سوى الكتاب المـنزل
لـو كنـت يـونس في روايـة نحـوه أو كنت قطرب في الغريب المشكل
وحويـت فقـه أبي حنيفـة كلـه ثم انتميـت لرسـتم لم تنبـل

وتوحيد ابن خزيمة الذي يقول عنه الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ما يقول! و«فاروق» الهروي و«ذم الكلام» له إذا وجدت على أمثالها خطوط بعض مَنْ جمع بين الرواية والدراية وسماعـاتهم فإنما ذلك للتوثق من نسبة الكتاب على مؤلفه حتى يتم الرد عليه كما فعل بكار ابن قتيبة حين رد على المزني في المسائل الفرعية!

(١) الرُسْتمي كما يظهر كان من المشبهة والمجسمة! ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/٤٣٢) وفيها: أنه (كان من الشداد في السنة) وهذا يعني أنه من أصحاب تلك العقائد الفاسدة المردودة!

وكان ابن حجر ينهي أن يرويَ عنه بعض ما تقدم من الكتب كما حكى ذلك السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» وهذا مما يدل على أن سماع مثله لمثل ما تقدم للتسجيل لا للتعويل! بخلاف أمثال صاحب الترجمة!

قال الحافظ السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ»: [أما ما أسنده أبو الشيخ في كتاب «السنة» له من الكلام في حق بعض الأئمة المتبوعين، وكذا ابن عدي في «كامله»، والخطيب في «تاريخ بغداد» وآخرون ممن قبلهم كابن أبي شيبة في «مصنفه» والبخاري والنسائي **مما كنت أنزههم عن إيراده مع كونهم مجتهدين ومقاصدهم جميلة فينبغي تجنب اقتفائهم فيه** ولذا عزر بعض القضاة الأعلام من شيوخنا من نسب إليه التحديث ببعضه بل منعنا شيخنا حين سمعنا عليه كتاب «ذم الكلام» للهروي من الرواية عنه لما فيه من ذلك] انتهى.

ومن العجب أن ترى خط الحافظ الجمال ابن عبد الهادي الحنبلي على مثل جزء الدَّشْتي المذكور وتسميعه لأهله وخاصته. وإنما أفضنا في هذا البحث ليكون القارئ على بَيِّنَة من أمر هؤلاء الحشوية المعادين لأهل السنة (الأشاعرة والماتريدية) حتى لا يغترَّ بالدعايات القائمة التي لا تنطوي إلا على جهل فاضح عند أصحاب العقول السليمة والنظر الصحيح، وقد استوفينا الكلام على ذلك في (تحذير الخلف من مخازي أدعياء السلف)!!

نص المقال المردود عليه في هذه الرسالة

عدوان على علماء الإسلام

يجب أن يكون له حد يقف عنده

كتب إلى مفخرة الحجاز ووجيهها السيد محمد نصيف يعاتبني على الكلمة التي كتبتها في جزء الزهراء الأخير تقريظاً لذيول «تذكرة الحفاظ»، ويلفت نظري إلى ما في تعليقات الكوثري عليها وعلى غيرها من سلاطة وطول لسان على علماء الحديث وأعلام الأمة وأئمة السلف.

وضرب لي مثلاً بما كتبه في ص (٢٦١) عن الحافظ الشرائحي الذي فاته في صغره أن يكون قارئاً كاتباً فلم يكن ذلك حائلاً بينه وبين أن يكون كما قال عنه الحافظ تقي الدين بن فهد:

«حافظاً لا يداني في معرفة الأجزاء والعوالي، وآية في حفظ الرواة المتأخرين يذاكر فيهم مذاكرة دالة على حافظة باهرة مع حظ من معرفة الرجال المتقدمين وغريب الحديث، وكان اعتماده في ذلك على حفظه، وكان يستعين بمن يقرأ له، وهو بهذه المثابة أعجوبة زمانه في المحاضرة اللطيفة والنوادر الطريفة.... وكان تغمده الله برحمته فقيهاً فرضياً أوحد الحفاظ المفيدين».

هذا ما قاله الحافظ ابن فهد في «ذيل طبقات الحفاظ» محاولاً تعريف ابن الشرائحي (٧٤٨-٨٢٠) الذي كان أعجوبة زمانه بما وهبه الله من علم في سنة

الرسول – صلى الله عليه وسلّم – وفي فقه الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وفي الفرائض والمواريث مع أنه كان أمياً.

والأمية كما يعلم القارئ غير العامية، فقد يكون الرجل أمياً ويكون مع ذلك من كبار أهل الأخصاء في علمٍ أو أكثر، كالإمام الكبير أبي عيسى الترمذي صاحب كتاب السنن – وهو أحد الكتب الستة التي أخذ منها المسلمون دينهم بعد كتاب الله – وكالعلامة العظيم ابنِ سِيْدَه صاحب المحكم والمخصص، ومترلتهما في اللغة لا تقل عن مترلة سنن الترمذي في الحديث.

فهؤلاء وأمثالهم كانوا أميين، ويسبُّ نفسه قبل أن يسبهم من يفسر أميتهم بالعامية، كما فعل الكوثري في تعليقه على قول ابن فهد في الشرائحي (ص٢٦١).

وظن الكوثري أن المجال اتسع أمامه للطعن بأئمة الحديث، فانتهز هذه الفرصة وقال في تعليقته: «ولأمثالهم (كثرة) بين الرواة على اختلاف القرون، بل (غالبهم) بمجرَّد تعلمهم حروف التهجي في الكتاتيب ينصرفون إلى الرواية وإلى مجالس السماع من صغرهم قبل تحصيل مبادئ العلوم الضرورية، فيبقون من أبعد خلق الله عن النظر والتبصر.... وإن كان بين هؤلاء من شهر بالرواية لكن لم يزالوا على عاميتهم لبعدهم عن أهل العلم وعدم ممارستهم النظر وتعودهم أن يعيشوا أمة وحدهم مُغْتَرِّين بكثرة الملازمين لهم لتحمل ما عندهم من الروايات».

وبعد أن أرسل الكوثري هذه الشتائم إلى (الكثرة) من علماء الحـــديث بل (غالبهم) غير متقيد بأهل قرن من القرون! خطر على باله حينئـــذ خـــاطر خبيث وهو أن يرمي ثمرتين بحجر واحد، فيرد على الأستاذ الإمام كلمـــة لـــه مشهورة في كتاب «الإسلام والنصرانية» وأن ينتقم لمن ذمهم الشيخ محمد عبده ممن كان يجلهم — رحمه الله — ويحترم مقامهم.

رأى الكوثري أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول في غلمان الترك الذين استعجم الإسلام على أيديهم زمن الدولة العباسية: «جاءوا إلى الإســـلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم، لبسوا الإسلام على أبدانهم ولم ينفـــذ منـــه شيء إلى وجدانهم، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته، ثم عدا على الإسلام آخرون كالتتار وغيرهم، ومنهم مَنْ تولى أمره، أيّ عدوٌ لهؤلاء أشد من العلم الذي يعـــرّف النـــاس منزلتـــهم ويكشف لهم قبح سيرهم؟!».

رأى الكوثري أن الأستاذ الإمام يقول ذلك في أجناد الترك وممـــاليكهم زمن المعتصم ومن بعده، فأراد أن ينتقم لهم من المحدّثين في الأقطار العربية فقال في هذه التعليقات الخبيثة ذاكراً (الكثرة) من أهل الحديث بل (غالبهم):

«ولم يستأصل الإسلام من عقولهم بعد شأفة نحلهم التي كانوا عليها قبل الإسلام(١) من يهودية بفلسطين(٢)، ونصرانية بالشام، ووثنية بالبادية، وصابئية بحرّان، وواسط عبدة الأجرام العلوية، وغيرها من قدماء المشبهة، ظانين ما هم عليه هو الاعتقاد الصحيح!!».

هذا بعض ما يقوله الكوثري في (غالب) علماء الحديث، وقد وقف حياته على البحث عما يقوله الخصوم في خصومهم ليذيعه في هذه التعليقات فيهدم حرمة الأئمة من قلوب الأمة.

وقد بلغ به الأمر أن أقنع صديقنا الفاضل ناشر تعليقاته بأن في دار الكتب الظاهرية كتاباً بخط شيخ الإسلام ابن تيمية قال فيه بالتجسيم ودار الكتب الظاهرية كان أبي رحمه الله أمينها ونشأت منذ طفولتي بين جدرانها، وكان اثنان في دمشق يقرءان خط شيخ الإسلام ابن تيمية أحدهما كاتب هذه

---

(١) الكوثري يتكلم عن علماء الحديث على اختلاف القرون، فلا ندري من هم المعنيون بقوله: إن الإسلام لم يستأصل من عقولهم بعد شأفة نحلهم التي كانوا عليها قبل الإسلام، فإن كان يعني مَنْ كان منهم قريب عهد بصدر الإسلام فهؤلاء التابعون وتلك مصيبة، وإن كان يعني أهل القرن السابع والثامن المعاصرين للحافظ الشرايحي فكيف لم تكف السبعة القرون والثمانية القرون لتطهير الأوطان الإسلامية من شأفة النِّحَل التي كانت فيها قبل الإسلام؟ أهذا هو البصر الذي يفتخر به الكوثري على أئمة الحديث! (محب ابن الخطيب)!!

(٢) وهذه جهالة أخرى، ففلسطين لما جاء الإسلام لم تكن ديار يهودية، بل لم يكن الرومانيون يجيزون لليهود يومئذ التوطن في فلسطين.

السطور والذي طُبِعَ من كتبه نقلاً عن خطه كان منقولاً بقلمي وأنا من أعرف الناس بكتب ابن تيمية المكتوبة بخطه.

فقلت لصديقي: إن كان هذا موجوداً بخط ابن تيمية فأنا مستعد لأعلن على رؤوس الأشهاد انضمامي إلى رأي الكوثري في هذه المسألة، وأما إن عجزتم عن إظهار ذلك بخط شيخ الإسلام فيكفي أن تعلم أيها الصديق أنك قد خُدِعْتَ وأن هذه الفرية فرية شعوبي عدو لسلفنا معتدٍ على علمائنا يقول بقاعدة «الغاية تبرر الواسطة».

ومن أمثلة بغضه للسلف أنه لما أراد أن يكتب ترجمة الإمام ابن قتيبة في ثلاثة سطور لم يجد ما يقوله فيه غير هذه الكلمات:

«هو صاحب التصانيف أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أحد أئمة الأدب، أخباري قليل الرواية، قد يعتمد في التشبيه على ما يرويه من كتب أهل الكتاب[1] يُتَّهَمُ بالنَّصْب، كذّبه الحاكم ووثّقه غيره. مات عام ست وسبعين ومائتين».

فانظر إلى هذه الصورة الكاذبة التي يصور الكوثري بها إماماً عظيماً كان خادماً للقرآن، مدافعاً عن سنة أبي القاسم — صلى الله عليه وسلّم، وسيلقى الله

(١) والعجب من الكوثري أنه وضع علماء الحديث المنسوبين إلى العراق في صف الصابئة وعبدة الأجرام العلوية، وابن قتيبة كان عراقياً، فما باله جعله تلميذ أهل الكتاب في التشبيه وهو لم يكن شامياً ولا فلسطينياً.

عز وجل وفي يده كتاب من تصنيفه في الرد على المشبهة يكذب به هؤلاء المستجيزين سبه والافتراء عليه.

وحسب ابن قتيبة قول الخطيب البغدادي فيه «كان ثقة ديناً فاضلاً» وثناء العلماء عليه من أيامه إلى عهد الحافظ الذهبي القائل: (ما علمت أحداً اتهمه في نقله) ثم إلى زمان الجلال السيوطي الذي كان ممن أحسن الثناء عليه؛ بل حسبه أن أهل المغرب كانوا يقولون: (من استجاز الوقعية في ابن قتيبة يتهم بالزندقة) ويقولون: (كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه).

إن ما يقوله الكوثري في علمائنا لو قال أقل منه طه حسين وسلامة موسى لأقمنا القيامة عليها. والمهمة التي انتدب لها الكماليون لا حاجة بها إلى من يكملها في بلاد لا تزال تعرف للسلف أقدارهم وفضلهم.

فهرس الكتاب

رقم الإيداع
٢٠٠٥/١١٨٦٥
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-315-086-0